المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الثامن بعد المائة

١ مايو سنة ١٩١٦ — ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٣٣٤

آراء حديثة

في نشوء الحضارات

مضى زمن بعيد منذ أن أقلع الاحيائيون عن الاخذ بفكرة التوالد الذاتي [1] وهم إذ يعتقدون أن بعض الاحياء لا بد من أن تكون قد تطورت فنشأ بتطورها أنواع جديدة، تجدهم بجانب هذا على يقين من أن العضويات الحية جميعاً تشترك في وحدة الاصل. وقد يدلك على شدة اعتصامهم بهذه الحقيقة أنهم اذا عجزوا في بعض الظروف عن اثبات هذه الوحدة سلّموها وفرضوها؛ حتى لقد تجد أن آراءهم كلها قائمة على أن كل حي إنما يتصل في النهاية بغيره من الاحياء.

ومنذ سنين بدى في عالم الفكر رأي جديد يقول بأن العقل الانساني، بانتباهٍ أو بغير انتباه، قصداً أو اعتباطاً، إنما يعمل على نمط يخالف هذا النمط، بمعنى أنه قادر على أن يُنشِّئ الثقافة جملة من طريق الاستجابة الذاتية لمؤثرات البيئة، بدل ان يتقدم نحو المدنية بخطًى ثقيلة متتالية، متنقلا في منازل التثقيف، درجة بعد درجة، وحالاً بعد حال، حتى لقد قيل بأن الحضارات العظمى انما هي محصلة اجتماع أمم بأسرها لا وجوه انفرادي

(١) Spontaneous generation ومؤداه أن الحي يتولد من غير الحي، والرأي العلمي الذي ثبت الآن أن الحي لا يتولد الا من حي مثله.

فقد نتكلم مثلاً عن حضارة المكسيك أو الصين أو الهند، ونعني غالباً شيئاً خاصاً بكل منها وإنه بكليته متأصّل فيها.

ولسوف نرى أن تولّد الثقافة تولداً ذاتياً مذهب باطل مضلل، وبالرغم من أن نشوء الثقافات نشوءاً ذاتياً أمرٌ يتعذر أن يكون قد وقع في بقاع مختلفة من كرة الأرض، فإن كل ما لدينا من العلم بنشوء الثقافات وانتشارها، يؤيد أن أكثر الجماعات الانسانية التي جاوزت من الثقافة طور الاستجماع[1] ومارست ضرباً ما من ضروب الفن أو الصناعة، إنما تدين بثقافتها تلك الى جماعة أخرى ورثت منها وأخذت منها. وهذا يدل، كما يدل في حالات الحياة المنظمة عامة، على أن كل جماعة لم تتجاوز من الثقافة حد الاستجماع[2]، إنما تتصل في النهاية بكل جماعة غيرها من الجماعات الانسانية. ذلك بأنها تملك قسطاً من المدنية التي كدّ الانسان في استحداث أسبابها على مرّ الدهور. ولا نعني بهذا ان أعضاء أية جمعية من الجمعيات ممنوع عليهم أن يخترعوا شيئاً جديداً كلاً. بل نعني أن المرجحات التي تنفي القول بأن جمعيتين قد استطاعت كل منهما بمفردها أن تنشىء ثقافة من مظاهرها على الطرف والنسيج والزراعة مثلاً، إنما هي مرجحات فيها من القوة ما يحملنا على الاعتقاد بأن نشوء حضارة كل منهما مستقلة عن الأخرى، أمرٌ لم يحدث فعلاً.

ولقد قام الآن في روع الاجتماعيين، من الأثر الذي قام في روع الاحيائيين من قبل فصاروا يأخذون شيئاً بعد شيء بفكرة الاتصال والاستمرار، ويبنون عليها استنتاجاتهم حتى عند ما يبدو مجزوم عن اثبات ذلك قطعاً أو احتمالاً. فكل جمعية، وفقاً لهذا الرأي ما عدا جمعية واحدة بالطبع[3]، تدين بثقافتها الى جمعية أخرى. وعلى هذا نجد اذا ما تتبعنا

(١) الثقافة عند القائلين بهذا الرأي حدان: الاول حد استجماع الطعام ثم يليه حد انتاج الطعام. وفيما سيأتي من البحث بيان شيء من الفروق التي تفصل بين الحدين.

(٢) سنجري بعد الآن على استعمال عبارتي الجماعات المستجمعة والجماعات المنتجة: لتدل الاولى على الجماعات التي تجمع الطعام Food-gathering والثانية على الجماعات التي تنتج الطعام Food-producing. فاذا قرأت ذلك فاعلم أن المعنى منصب على جمع الطعام وانتاجه. وكذلك سنجري على استعمال عبارة «طور الاستجماع» لتقابل عبارة Food-gathering stage، وعبارة «طور الانتاج» لتقابل عبارة Food-producing stage.

(٣) هي بالضرورة الجمعية الاولى التي أنشأت أصول المدنية.

الأمر واستقصيناه ، خيوطاً ، تمتد من مختلف بقاع الأرض وتنتهي عند مركز واحد ، هو بالضرورة النمط الذي قاض بأصول الحضارة . ولا شك في أن الإكباب على درس الحقائق درساً واسعاً ، ووزنها بحكمة ، إنما يؤدي بنا حتماً الى هذه النتيجة . والرأي الآن على أن المدنية شيء قائم بذاته وأن له نمطه الخاص في التطور والنشوء .

ليست المدنية بشيء من خلائقه الثبات وعدم التغيير ، بل انها في الأكثر عرضة لتطورات دورية . ومن أخطر الأشياء التي يقف الباحث الاجتماعي نفسه على درسها وتقصيها ، معرفة الأسباب التي تسوق الى تلك التطورات . فكثيراً ما حدث في الماضي أن جماعات عظيمة قد انتابها الانحلال والتدهور . ولكثرة ما حدث ذلك ثبت في روع بعض الباحثين أن هنالك سنة ثابتة للنشوء والانحلال يخضع لها كل كائن اجتماعي . أما الرأي السائد الآن فيثابذ ذلك في حين أن النزعة الحربية اذا درست علمياً كما يدرس كل نظام اجتماعي آخر ، فانه يتضح لنا أن الانسان قد تلقى على مدى العصور علماً خاصاً ازدادت مع تبحره فيه نزعته الى العنف ، وان الجماعات الانسانية في نشأتها الأولى كانت جماعات مسالمة محبة للهدوء والطمأنينة ، وان فن الحرب انما نشأ وترعرع اتفاقاً ، فكان بمثابة ماء خبيث علق بجسم كان بريئاً منه ، أو بمثابة نبات طفيلي شب وربى حتى لقد بلغ من النماء حداً ينذر بفناء الجسم الأصيل الذي علق به . أما اذا استطاعت هذه البحوث الحديثة أن تعدل العقلية العامة وتردها الى الصواب تلقاء هذه الحقيقة ، فان العلم يكون قد عوض على الانسان بمقدار ما قد أخل وضيع بتشجيعه على إقامة الحروب .

***

يقطن الأرض الآن جماعات بلغ كل منها طوراً من الثقافة يختلف عن الطور الذي بلغه غيرها . ففي أحد الطرفين جماعات منظمة بلغت من النشوء حداً استحدثت فيه كل أسباب الحضارة ، وحازت وسائل استطاعت بها أن تحكم في الزمان فتجعل الساعة الواحدة بمثابة جيل في زمن مضى ، وان تحكم في المكان فترده بالسرعة كأنه فناء ودثور ، تاهيك بما تتضمن حياتها الفردية والاجتماعية من التعقد والاشتباك . وفي الطرف الآخر جماعات لم تتقدم تقدماً يذكر في الفن أو الصناعة ، فلا تزال عائمة في مناكب الأرض باحثة عن موارد

الغذاء ، تأخذها من حيث يتفق لها أن تقع عليها ، وقد تجد جماعات من هذا الطراز في أطراف من الأرض لم تغزها المدنية ، كعراج الهند الجنوبية ومجاهل أمريكا وجنوب إفريقية ، وغير ذلك من البقاع . وفيما بين هذين الطرفين تقع على عدد عظيم من الجماعات تتدرّج ثقافتها تدرجاً يقرّبها من أحد الطرفين . ومن أجل أن نحاول تفهم طبيعة المدنية ، ينبغي لنا أن لا نهمل النظر في جملة من هذه الجمعيات ، وان لا نخرج بعضها من حسابنا .

ذلك بأن المشكل الأساسي الذي يصادف كل باحث في أسباب نشوء المدنية ينحصر في الفحص عن حقيقتين جوهريتين ، فانه من الجلي أنه في غمر من العصور عريق في القدم كانت الأرض مأهولة بجماعات قنعت بالاستجماع (جمع الطعام) فوقفت ثقافتها عند هذا الحد ، ولم تنزع الى زراعة ما تنتات به أو تعمل على ايلاف حيوانات تغتذي بلحومها أو تحتلبها لتنتفع بألبانها . فعلى الباحث أن يعرف كيف ولماذا استطاع الانسان ، بعد أن ظل في الدرجة الاستجماعية عصوراً قد ترتد الى آلاف السنين ، أن يستكشف كيف يزرع نباتات وان يربي حيوانات لتغذي بها ، فانتقل بذلك من الحالة الاستجماعية الى الحالة الانتاجية ، وقفز من درجة ثقافية الى أخرى تعلوها وتبزها تقدماً وارتقاء . هذه هي الحقيقة الأولى التي ينبغي للباحث الاجتماعي أن يفحص عن أسبابها . أما الحقيقة الثانية : فان يعلل لماذا عجزت بعض الجمعيات البشرية عن أن تخطو هذه الخطوة ؟ ففي كل الأطوار التي قطعها الانسان نحو التمدن تقع على هذه الجماعات الاستجماعية وكأنها الظهير الذي استندت اليه الحضارة في مأساتها الطويلة . وانك لتجد ان هذه الجماعات فضلاً عن ذلك تقوم مقام الأساس الذي بنى عليه الانسان كل ما أبدع من صور الفن والصناعة وانها كانت المهد الذي يرجع اليه كل أصل من أصول النظام الحضاري . لهذا كان من الضروري أن يفقه الباحث لماذا عجزت بعض الجماعات عن أن تخطو الى ما وراء المظهر الاستجماعي من الثقافة ، ولماذا دانت جماعات أخر فتخطت ذلك الطور ، ومضت تضرب في الطور الانتاجي .

ومن الطبيعي أن تسأل : ما هي العلاقة أو الرابطة التي تربط الجماعات الاستجماعية العائشة اليوم بمثيلاتها من الجماعات التي أهلت بها الأرض قبل ظهور الجماعات الانتاجية ؟ أيستطيع أن تأتي ثقافة هذه الجماعات البدائية دليلاً يظهرنا على الأسلوب الذي تكوّنت

به الخطوات الأولى التي وجهت الانسان نحو الحضارة ؟ فان مثل هذه الموازنة انما تقوم على أساس من الفنون والصناعات المادية . ذلك بأننا لا نعرف شيئاً ما عن المجالي الأخرى التي تجلت فيها حياة الأقوام الأولى التي قطنت أوربا مثلاً ، إلا تلك التي بادت وفنيت منذ أزمان ، فاننا لا نجد لدينا شيئاً يذكر من الشواهد التي قد نتخذها أساساً للموازنة . وانه لما يثير العجب أن الجماعات الاستجماعية التي خلفت لنا بقايا يمكن أن نتوصل بها الى درس التطورات التي انتابت ثقافتهم ، هي وحدها الجماعات التي قطنت حقاً في البحر المتوسط منذ عدة آلاف مضين من السنين . أما الجماعات الاستجماعية في غير ذلك من بقاع الأرض ، ما عدا بعض عواذ قليلة ، فلم تترك أي أثر يدل على طرف مما من مدنيتها .

ولسنا نعلم كم من السنين ظلت الجماعات الاستجماعية في آسيا وغيرها من القارات مقيمة في مآهلها الحالية . غير أن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد انها تمثل عملياً أقدم الأقوام التي قطنت البلاد التي تقيم فيها الآن .

***

ولا بأس بأن نورد هنا قائمة بأهم الأقوام الاستجماعية العائشة اليوم في أفريقية : الزنوج والبوشمن .

وفي آسيا : الفدا في سرنديب . بعض القبائل التي يتقدم عهدها على العصر الدرافيدي في جنوب الهند . السيمنج والساكاي في غربه جزيرة الملايو . أهل أندامان . كوبرو في سومطرة . البوتان في بورنيو . قبائل جزر أرو . زنوج جزائر الفيليبين .

وفي أوشيانيا : الاستراليون والطسمانيون .

وفي أمريكا : الإسكيمو . الداتا في حوض نهر مكنزي . البوتوك في نيوفوندلاند (بائدة) ، البايوت في يوتاه . القبائل الكاليفورنية . قبائل جزيرة أرض النار .

على ان بعض القبائل السيبيرية كالتونجوز ، والاوستياك ، وهو قبيل لم يبق

بايلاف الغزال الأحمر ، تقرب كثيراً من هذه القبائل من حيث الثقافة والمدنية ، وإنه من الممكن بقليل من التساهل أن تعدهما .

وبعض هذه الأقوام ضعاف طبيعيًّا وتكوينيًّا . فالزنوج في أفريقية والسِّيمَنْج في شبه جزيرة الملايو والأندمان ، وزنوج الفلبين جميعاً من السلالة القَزَمِيَّة السوداء التي قطنت البقاع التي تأهل بها الآن . اما أهل أوستراليا الأصلاء فهم مثلٌ على سلالة أكثر من ذلك بدائية . لهذا نقول إن نموذجاً بدائيًّا من نماذج نوع الانسان العاقل Homo sapiens بلغت بدائيته حدًّا يفيدنا في بحوثنا هذه ، ما يزال يغشى الأرض وتأهل به بقاع منها .

وهؤلاء الأقوام ، ما عدا استثناء واحد أو استثناءين ، ليس لهم أي أثر في تنمية الفنون أو الصناعات . على أنهم في بعض الحالات قد تأثروا ببعض جيرانهم من القبائل الاستجماعية . غير أننا اذا استخلصنا هذه المؤثرات الخارجية وعزلناها عن حياة هذه القبائل ، فان النتيجة المحتومة التي نصل اليها من وزن الحقائق التي تتبقى لدينا ، هي أن هؤلاء الأقوام قد وقف عاؤهم الثقافي عدداً غير معروف من آلاف السنين . ولكن على شواطىء البحر المتوسط وما يجاوره من البقاع ، نقع على أقوام من الاستجماعيين ضربوا في عالي التطور الثقافي . وهذه حقيقة من أهم الحقائق في البحث عن نشأة الحضارة . لأن كل الاستنتاجات العلمية تحملنا على اليقين بأنه في بقعة من هذه البقاع — المحيطة بالبحر المتوسط — بدأت المدنية تدور بدُورها اليانعة . وهذه الحقيقة فضلاً عن ذلك تركز البحث في بؤرة واحدة . ومن هنا ، نجد اننا اذا فكرنا في نشوء المدنية وتطورها من بدايتها الأولى ، فلا ينبغي لنا أن نوجه أفكارنا إلاَّ الى بقعة بعينها من بقاع الأرض ، وأنه ليس علينا أن ندور بأفكارنا باحثين عن الحقائق التي يقوم عليها البحث في بقاع متناثرة هنا وهنالك .

من الحقائق التي يقوم عليها البحث ، حقيقة انه ليس من الأقوام الاستجماعية العائشة اليوم أقوام يرتبطون بالماضي السحيق . غير أن لهذه القاعدة استثناءين : هما أقوام البوشمن في أفريقية ، والاسكيمو في شمال امريكا وغرينلاند على تباعد ما بينهما . فقد أكَّد الأستاذ « سلاّس » في كتابه « القُدَماس الأقدمون وعالمهم الحاليون » أن في ثقافة هذه القبائل عناصر تتفق وثقافة قطان أوربا الأولين . واذا استثنينا هذه الأقوام فاننا نعجز عن أن نجد

مخلفات تدل على عاء تقافي يماثل الماء الذي وصلت اليه القبائل الاستجماعية في حوض البحر المتوسط فيما قبل التاريخ .

وإنه من الممكن أن ندرس أوجه النشاط التي تجلت فيها أعمال الجماعات الاستجماعية في أوربا . ذلك بأنهم مهروا في صناعة الاحجار وبالاخص في الظران والشرت فهذبوها واتخذوا منها أدوات مختلفة . ومن درس الطبقات الارضية المتباينة التي عثر فيها على هذه المخلفات ومن بقايا الحيوانات التي نقع على عظامها مع هذه المصنوعات ، نستطيع أن نعرف كيف كانت تعيش هذه الجماعات . والدلائل المادية تدلنا على انها عاشت في أوربا ، وبخاصة في فرنسا واسبانيا والمانيا والنمسا ، وفي شمال أفريقية ، وبخاصة في مصر وبلاد العرب وسوريا وفيليقية ، وأنه في بعض أطوار بقائها وصلت صناعاتهم الى جنوب أفريقيا وآسيا .

اسماعيل مظهر

نظام الامومة — Matriarchal System

also = - Matriarchalise. m; Matriarchy. f L. mater (mother); in the Encycl. Dict. Supp. (L. Mater. = mother and Gr. archê = rule).

(١) حكومة الام أو الامهات .

(٢) وضع فيه تحكم الامهات الاسرة أو القبيلة وتكون سلسلة النسب راجعة فيه الى الام لا الى الاب .

(٣) نظام اجتماعي ألفته بعض القبائل البدائية ، تتقدم الام فيه على الاب ، من حيث انتساب الاعقاب والوراثة .

الحرمُ الكَنَسي — Excommunication

(أ) منع شخص من مباشرة الحقوق والعلاقات الدينية .

وقد استعمل حق الحرم في كثير من العصور عند الاغريق والرومان واليهود . وبين بعض الشيع الاسلامية . وكثيراً ما كان يترتب عليه نتائج ذات خطر .

(ب) كان الحرم في الكنيسة المسيحية الاولى ينفذ في كل شخص بغيض أو غير مرغوب فيه ، منشأ شكلياً من التبعية للكنيسة . وعلى هذا ظلت الكنيسة البروتستانتية الحديثة .

فلما قويت الكنيسة وتمت غلبتها ، أصبح الحرم عملاً كثير التعقيد قليل النتائج . فهو في الكنيسة الكاثوليكية الكبرى وما يتبعها من الكنائس إما جزئي وإما كلي ، مؤقت أو دائم .

فالحرم الجزئي أو المؤقت يسلب الشخص حق التمتع بتلقي الاسرار المقدسة (Sacraments) وربما تعدى ذلك الى منعه من التمتع بحقوق العبادة الكنسية .

أما الحرم الكلي أو الدائم فمن شأنه أن يبت علاقة الشخص بالجماعة التي هو منها ، ويحرمه التبعية للكنيسة .

(ج) الحرم الجزئي أو المؤقت (Minor or Lesser Excommunication)

(د) الحرم الكلي أو الدائم (Major or Greater Excommunication)

الصيدلة [1]

عند قدماء المصريين

إن لفظ (الكيميا) مشتق من أداة التعريف (ال) وهي عربية ولفظ (كيميا) وهو اسم مصر القديم ومعناه الأرض السوداء . فاسم كيميا اذا عرّب أصبح (علم مصر) وهو في ذاته شهادة بمكانة مصر الفرعونية من هذه الوجهة العلمية . ويكتب هذا الاسم بالهير وغليفية بهيئة كومة من الفحم النباتي . ولما كان استعمال النار هو أساس الكيميا وابتكار الوقود دعامة الصناعات الكيماوية كان اسم مصر (كي) برهاناً قويّاً على أن وطننا هو مبتكر النار ومكتشف الوقود . ولا يخفى ان الانسان في مبدئه كان يجهل النار الاّ اذا رآها عرضاً عن طريق الطبيعة كالصواعق وغيرها كما كان يجهل تماماً طريقة إحداث النار عند الطلب وإبقائها مشتعلة المدة اللازمة أو بعبارة أخرى إخضاع النار لمشيئته .

ونسب علم الصيدلة الى المعبود (تحوت) مبتكر العلوم . وهذا المعبود يقابله (هرمس) عند اليونان ، لذلك سمي علم الصيدلة بعدئذٍ العلم الهرمسي (Hermetic art) . وكان هرمس خاتم تختم به زجاجات العقاقير . والى هذا الخاتم يرجع التعبير الكيماوي المعروف بعبارة (مختوم بالخاتم الهرمسي) أو (Hermetically sealed) .

وعلم الصيدلة متصل اتصالاً وثيقاً بالطب ، تقدم بتقدمه ، وانحطّ بانحطاطه ، لذا يجدر بنا أن نذكر طرفاً من تاريخ الطب من هذه الناحية فاذكر لحضراتكم أن قدماء المصريين اعتادوا الاعتناء بصحتهم . فذكر (هيرودوت) ان المصريين مارسوا علم الطب بمهارة فائقة . وكان لا يسمح لأحدهم أن يمارس فرعاً ويختص فيه . بل كان الواجب دراسة الطب كله أولاً في مدة معينة ، ثم الاختصاص في بعض فروعه . لذلك قال المؤرخ المذكور إن أطباء المصريين كان بعضهم كحاليز وبعضهم اخصائيين في أمراض النساء ، والبعض الآخر في أمراض الاسنان أو

(١) ملخص محاضرة حضرة صاحب العزة الدكتور حسن بك كامل مدير قسم وقاية الطفل بوزارة الصحة ألقيت في جمعية الصيدلة المصرية

الامراض الباطنية — وهكذا . وكانوا يتعاطون المرتبات من مالية الحكومة . وخوفاً من إستعمال الأطباء لبعض العقاقير على قبيل الاختبار في المرضى وضعت الحكومة قانوناً حازماً يعاقب كل من يسيء استعمال هذه العقاقير . وكل انسان يموت ضحية هذه التجارب يعتبر موته جناية تستحق العقاب . أما اذا وصف الطبيب دواءه حسب الأصول الطبية المقررة ولم ينجح سوّغ له الاتيان بما يراه نافعاً من التجارب لشفاء المريض . وكان يراعي الطبيب في علاجه ما كان يستعمله السلف وتثبت فائدته .

ومع أن الاطباء كانوا يتناولون مرتّباتهم من الحكومة ، فكان يسمح لهم بأخذ أجورهم من المرضى ، إلاّ إذا وُجد الطبيب ببلاد أجنبية ، فيجب عليه في هذه الحالة أن لا يتناول أجراً من أي مريض كان .

وذكر (هيرودوت) في كتابه (ص ١١ — ٧٧) أن أهالي القطر المصري كانت لهم شهرة ذائعة لاعتدال صحتهم واهتمامهم بها . فكانوا يتعاطون علاجاً خاصًّا مدة ثلاثة أيام في كل شهر فانًّا منهم أن الامراض ناشئة عن ضعف القوة الهضمية وكانوا يهتمون بضبط اوقات الغذاء وتعاطي المسهلات .

ووصف هوميروس في كتابه المسمى Odessey (ص ٢٢٩) الأدوية الكثيرة التي أعطتها Polydemnia زوجة Thones الى Helen أثناء وجوده بالقطر المصري فقال « ان مصر بلدة خصبة تخرج أرضها عقاقير كثيرة لا تحصى . منها النافع ومنها الضار . وبها أطباء يمتازون عن غيرهم بمعارفهم الواسعة .

ونسب المصريون الطب وتدوينه الى (اخوتب) وقالوا انه أول واضع له وانهم الصيدلة واليه يرجع الفضل الأول في علاج الأمراض بالوصفات العديدة الناجعة . وعاش اخوتب هذا في عهد الملك (زوسر) (حوالي ٢٩٥٠ ق . م) واشتهر وزيره الأكبر بالطب والصيدلة والمهارة والذكاء حتى خلد اسمه في تاريخ مصر القديم . فذكره الكتّاب في كتبهم بأنه رجل عظيم ذو معرفة وخبرة .

واعتقد القوم ان بعض الأدوية لا تصلح إلاّ اذا حُضّرت ليلاً وفي ضوء القمر أو في فصل مخصوص من السنة كالصيف مثلاً . وذكروا أن بعض الأدوية يؤثر في الصيف

تأثيره في الشتاء . وان أمهر الأطباء عندهم من عرف تأثير السحر والدواء وميّز بينهما بين حيث الفائدة والعلاج . والآن أذكر أهم المراجع الفرعونية الخاصة بالصيدلة وعلاقتها بالطب:

(١) قرطاس (ايبرس) هو أضخم هذه الكتب عثر عليه بمقبرة بالأقصر مع قرطاس (ادوين سميث) عام ١٨٦٢ م اشتراه الأثري الالماني (ايبرس) . وهو الآن محفوظ بمتحف (ليبزج) بألمانيا وفي حالة جيدة جداً . وعلى ظهر هذا القرطاس دونت تواريخ هامة ساعدتنا كثيراً على معرفة عدة أزمنة مجهولة . والمعروف أن هذا القرطاس دوّن حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م لكن لغته واعتبارات أخرى فيه تدل على انه منسوخ من كتب أخرى أقدم منه بقرون عديدة . خذ مثلاً ما ورد في إحدى عباراته من أنها مأخوذة من وصفة في الأسرة الأولى (٣٤٠٠ ق . م) وفي أخرى أنها من زمن إحدى ملكات الأسرة السادسة (٢٢٥٠ و ٢٤٧٥ ق . م) ويحوي هذا القرطاس وصفات عديدة لأمراض متباينة وكل وصفة مكوّنة من عدّة جواهر ، أمام كل جوهر مقداره اللازم وآخر كل وصفة طريقة تعاطي الدواء . ولا يسع الباحث في هذا القرطاس إلاّ أن يستنتج انه مجموعة كتب صغيرة بعضها طبي والبعض الآخر روحاني . وكتابة القرطاس في شكل أعمدة أشبه بجرائدنا اليومية ويبلغ عددها المائة والعشرة عموداً وعدد وصفاته ٨٧٧ وصفة .

(٢) قرطاس هيرست Hurst اكتشف عام ١٨٠٩ بدير البلاجي بالصعيد . وفي سنة ١٩٠١ اشتراه الدكتور ريزنر Reisner الأثري وأهداه الى جامعة كاليفورنيا بأمريكا . وقد اعتبرى أوائل هذا الكتاب التلف . أما الباقي فهي في حالة جيدة . وهو يحوي ١٥ عموداً في النصوص الطبية . ويرجع تاريخه الى حوالي ١٥٠٠ ق م . وفيه شبه لقرطاس (ايبرس السابق) حتى ان بعض عباراته تكاد تكون مطابقة لبعض عبارات بقرطاس (ايبرس) ويبلغ عدد وصفاته ٢٦٠ وصفة .

(٣) قرطاس (برلين) الطبي ، أحدث عهداً من القرطاسين السابقين . لكنه يحوي عبارات قديمة العهد . وعباراته مكتوبة بإهمال ومحشوّة بأخطاء وتحوي ٢٤٠ وصفة بما في ذلك العبارة المذكورة على ظهره الخاصة بمعرفة العقم ونوع الجنين في الرحم . وكان العثور عليه في القرن التاسع عشر بسقارة (بسالاكا) في مقبرة يرجع تاريخها الى عهد

رمسيس الثاني (١٢٩٢ — ٢٢٢٥ ق . م) .

(٤) قرطاس كاهون الطبي ، اكتشفه (سير فلندرز وذيتري) سنة ١٨٨٩ أثناء القيام بالحفر في جهة اللهون . وهو أقدم من القراطيس المذكورة قبلاً . يرجع تاريخه الى عهد الأسرة الثانية عشر (٢٠٠٠ — ١٧٩٠ ق م) وهو ممزق ، إلاّ أن نصوصه واضحة وهي خاصة بأمراض النساء ويحوي ٣٤ وصفة .

(٥) قرطاس (لندن) الطبي ، أو ايبرس روحاني يرجع الى زمن الأسرة الثامنة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق . م) ولو ان عباراته أقدم بكثير من ذلك وهو محفوظ في دار تحف لندن تحت رقم ١٠٠٥٩

(٦) و (٧) قرطاسا داري تحف (ليدن) و (تورين) هما قرطاسان قديمان روحانيان يحويان قليلاً من الوصفات الطبية .

(٨) قرطاس (أدوين سمث) عثر عليه بمقبرة بالأقصر عام ١٨٦٢ وهناك اشتراه المستر (أدوين سمث) وقد اعتراه بعض التلف وفقدت بعض نصوصه . لكنه اهتدى اليها بعد ذلك واشتراها على دفعتين . ثم توفي وانتقل القرطاس بعد ذلك الى ابنته (ليونورا سمث) التي أهدته الى الجمعية التاريخية (بنيويورك) ويبلغ طوله ٤٫٦٨ متراً . انما يظن انه كان يبلغ حوالي خمسة أمتار . ويتراوح عرضه بين ٣٢٫٥ سم و ٣٣ ، وهو يقرب من عرض القراطيس القديمة التي يرجع تاريخها الى ما بين المملكة الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق.م) ، عهد الامبراطورية (١٥٥٥ — ٧١٢ ق . م) وفي هذا القرطاس ١٢ لوحة متعاقبة وتحوي ٢٢ عموداً من النصوص المصرية القديمة منها ١٧ رأسية و ١٥ أفقية . ويظن أن هذه النصوص المصرية القديمة كتبها عدة أشخاص لاختلاف واضح في الخط .

و بمقارنة الخطوط المصرية القديمة التي بهذا القرطاس بالخطوط المستعملة أيام ملوك الرعاة لوحظ أن بينها مشابهة كبيرة . وعليه فلا يبعد أن تاريخ هذا القرطاس يرجع الى القرن السابع عشر قبل الميلاد . ويلاحظ أيضاً أن كاتب هذا القرطاس كان يجيد الخط لكنه لم يكن ضليعاً . وانه ترك بعض الأحرف بدون ذكرها . وراجع كتابته وصححها بالمداد الأحمر فوق الأسود وبالمداد الأسود فوق الأحمر . وتشتمل السبعة عشر عموداً الرأسية على شرح

٨٤ حالة مرضية . وهذه الحالات تبدأ بالرأس وتنتهي بالقدمين وهي موصوفة وصفاً دقيقاً .

الى هنا انتهى ملخص الكتب الطبية في مراجع الصيدلة المصرية القديمة . بقي علينا أن نذكر ان كل معبد كانت تلحق به حديقة خاصة للنباتات الطبية يستعملها الأطباء من الكهنة لأن الطب والدين كانا متصلين وقتئذٍ اتصالاً وثيقاً . ويمكننا أن نستدل على مدى تقدم علم الصيدلة في تلك العصور بالرجوع الى طريقة تحضير العقاقير وخلافها .

والمعروف انه كان يلحق بكل معبد معمل خاص أشبه بمعاملنا الكيمائية تجهز فيه الروائح والعطور اللازمة للطقوس الدينية وأيضاً العقاقير الخاصة بصيدلة المعبد والكتب الطبية المذكورة آنفة بالتذاكر العلاجية . كما ان جدران المعابد كثيراً ما نقشت عليها الوصفات الطبية . ويحوي معمل المعبد جميع الأدوات اللازمة لتحضير العقاقير . نشاهد فيها طريقة سحق العقاقير في (الهاون) بواسطة شخص تارة وبواسطة شخصين تارة أخرى ثم تصفية هذه السحيق بما يشبه المنخل .

وكانت الاسكندرية في عهد البطالمة تحوي مكتبة فيها كتب قيمة في الصيدلة . ذكر زوسيموس (ص ١٨) — الذي عاش حوالي ٣٠٠ بعد الميلاد — ان هذه المكتبة المسماة Serapion كانت تحوي آلافاً من كتب الصيدلة . والمعروف ان معبدي ادفو وجزيرة فيلة كانا يحويان مكتبتين قيمتين أيضاً .

ومنذ عهد الأسرة الثالثة (٢٩٨٠ — ٢٩٠٠ ق . م .) كانت المكاتب تسمى « دور الكتب » وكانت تحوي قراطيس بردية تبحث في الطب والجراحة والصيدلة وغيرها .

ولاشتمال الطب المصري القديم على كثير من المكتابات المختلفة تحتم على الصيدلي المصري معرفة عن النبات وخواصه ليدرجه في الدواء اللازم . خذ مثلاً ما ورد بالوصفة رقم ٢٨٤ بقرطاس ايبرس تعريبه ان النبات (سنوت) يمتد على بطنه مثل القناه وله زهر كالورد وأوراقه تشبه الخشب الأبيض . وذكروا أيضاً منافع النبات في أحوال مخصوصة . مثال ذلك : ما ورد بقرطاس (ايبرس) في الوصفة رقم ٢٥١ عن شجرة الخروع . وتعريبه : منافع شجر الخروع حسبما ورد في الكتب القديمة تأليف خيار الناس . اذا دقت أصولها في الماء ووضعت على الرأس التأم في حالاً . واذا خلط المخلاً من بزرها مع البيرة أسهل الانسان من بطنه

وأدرىء المرض في جسمه . وينفع بزرها لنمو شعر المرأة وذلك بسحقه مع زيت أرضي تدهن به المرأة رأسها . ويستخرج من بذره زيت يدهن به الذي به صديد وعفونة كريهة فيزيله من الأعضاء كأنه لم يكن . واستعملوا للاطفال العلاج المناسب لهم في النوع والمقدار . مثال ذلك : ما ورد بقرطاس ايبرس تحت وصفة ٢٧٢ لاصلاح البول عند الطفل والبالغ : « تخلط شوائي العاب على البيرة (وهي كما نعلم الطريقة المبدئية لاستخراج الصبغة الطبية للنبات (tincture) ثم يضاف اليها مقدار من الماء ويعطى للرجل أو المرأة لشربه . ويعطى للطفل مقدار هن Hin واحد (وهو يعادل نصف لتر تقريباً) . ورد في قرطاس (ايبرس) تحت رقم ٢٧٣ ما تعريبه : علاج البول الصديدي عند الطفل — مادة يقال لها (خنت) تسحق وتعمل حبوباً ويعطى للطفل ان كان مفطوماً . اما اذا كان في القماط (أي رضيعاً) فيخلط بلبن المرضعة ويعطى له مدة أربعة أيام .

وكان الاطباء يصفون الجرح والدمامات والمراهم والحبوب والقطرات والمبخ والبخور والحقن الشرجية الخ . وكانوا يستحضرون منقوع النبات ومغلياته اما في النبيذ أو الجعة العذبة أو المياه المعدنية . وذكروا الوصفات الكثيرة لتجميل الجسم وإطالة شعور السيدات وتحسين بشرة الوجه وتجديد الجلد وتزكية رائحة الفم وازالة الرائحة الكريهة بين الأصابع صيغاً وغير ذلك .

العقاقير الحيوانية — ان البحث في هذا الموضوع ليس بالسهل . ولا نزال نجهل (مضمون) مدلول معظم أسماء العقاقير . نعم ان هناك مئات من الجواهر ذات الأصل الحيواني والنباتي والمعدني مذكورة ضمن الوصفات لكننا لا نزال نجهل معظم هذه الحيوانات ، وكل ما يمكننا معرفته هو الجزء الخاص من الحيوان مثل شحمه أو لحمه أو دمه . اما الحيوانات المعروفة التي استعملت أجزاؤها في التطبيب فهي الثور والماعز والغزال والوعل والخنزير وفرس البحر والأسد والنمر والوطواط والأوز والضفدع والسلحفاة وأنواع السمك وغير ذلك . أما النباتات التي كانت تدخل ضمن الوصفات فلا نزال نجهل أغلبها . وكان القوم يستعملون كل النباتات أو ورقه أو بذره أو فاكهته أو عصيره أو جذوره أو راتينجه . وقد كان استعمال الأجزاء الحيوانية معتبراً في القرن التاسع عشر مثال الجهل . أما الآن فنعلم ان كثيراً من

الامراض ناجم عن قصور في وظيفة غدد الجسم يعالج بتعاطي ما يقابله من غدد الحيوان. فرض الكسيديا الناجم عن فشل الغدة الدرقية يعالج بتعاطي هذه الغدة في حيوان كالثور والانيميا الخبيثة التي هي نتيجة قصور في وظيفة الكبد تعالج الآن بتعاطي هذا العضو نيئاً. وتظهر أيضاً أن تعاطي المعدة كافٍ لشفاء هذا الداء. وهناك أمراض أخرى ناتجة من قلة الفيتامين كالكساح والبلاجرا تعالج بتعاطي الفيتامين المضاد الذي يوجد في كبد السمك والخمير (الحبوب والبقول). كل هذا أيها السادة يجعلنا نتساءل عما اذا كان أجدادنا عالمين بخواص هذه الاعضاء الحيوانية وأنواع النباتات حتى أكثروا من وصفها لامراضهم كما نصفها نحن الآن. وما أوردناه عن صعوبة معرفة مدلول أسماء الحيوانات والنباتات ينطبق على الجواهر المعدنية العديدة المذكورة ضمن الوصفات الطبية.

والسائل الذي كانت تتعاطى فيه العقاقير بهيئة مزيج هو عادة الماء أو اللبن أو الشهد أو النبيذ أو البيرة. أما الدهان والمروخ فأغلب وضعهما تحوي الشهد أو الصمغ أو الراتينج أو شحم الحيوان. وكانوا يتعاطون العقاقير جافة بشكل مسحوق وأحياناً ينقعونها أو يغلونها أو بين بين. وكثيراً ما وصف القوم الحبوب والاقراص المستحلبة والاقماع، ثم يذكرون في آخر كل وصفة طريقة الاستعمال كما تفعل الآن تماماً. فكانوا يقولون مثلاً: يؤخذ هذا الدواء ليلاً ونهاراً، قبل الغذاء أو بعده. وأمام كل جوهر مقداره اللازم مما يشير الى عنايتهم بعلم الاتزان.

والى قدماء المصريين يرجع الفضل في ابتكار عدة عقاقير لا تزال تستعمل للآن، منها النشادر. وكانوا يستخرجونه بسحق وغلي أو حرق قرون الحيوان أو حوافره أو عظامه، وذلك بشكل بخور أو علاج موضعي. وهذه الطرق المبدئية في استخراج النشادر واستعماله هي الأصل في بقاء هذا الدواء في الطب اليوناني والسوري والعربي والاوربي في القرون الوسطى. وكان يطلق عليه في القرون الوسطى اسم (Hartshorn) ومعناه قرن الظبي. ومحلول النشادر المائي لا يزال يعرف في وقتنا هذا بالاسم Spirits of Hartshorn-liq. ammoniae

ومن أهم العقاقير النباتية قشر الرمان. وهذا النبات قديم العهد في مصر. وكثيراً ما عثر على فاكهته بالمقابر الفرعونية. ووردت بقرطاس (ايبرس) وصفته لطرد الديدان في الامعاء تتلخص في سحق قشر الرمان ومزج ذلك بالماء ثم تعاطيه (ايبرس لوحة ١٥ سطر ١٨). واشتهرت هذه الوصفة عدة قرون في بلاد متنوعة كأشور واليونان والعرب. وهناك وصفات مصرية قديمة تحوي الشبت (Dill) والكزبرة (Coriander) والكمون (Cumin) والكراوية (Caraway) والحلبة (Fenugreek). وكان الآشريون يقولون باستعمال البيروح أو

المندراجورا (Podophyllum) في الطب الفرعوني لكن ذلك لم يثبت للآن . نعم أنه عثر على فاكهة هذا النبات بمقبرة (توت عنخ آمون) لكن ذلك كان بقصد الزينة فقط . وكان المصريون يتعاطون بزور الخروع للامساك والضعف العام والصداع . وأهم العقاقير المعدنية التي استعملها المصريون في الطب هي السلفون والشبة وملح الطعام وكاربونات الصودا .

وهناك قرطاس بردي قبطي يقال له قرطاس المشليخ (٨٠٠ — ٩٠٠ب.م) يحوي حوالي ٢٣٧ وصفة منها الوصفة الآتية — لالتهاب الأذن الحاد — أفيون ، دهن عجل ، لبن ، أمزجها معاً ثم دفىء المزيج وضعه في الأذن فان الألم يسكن حالاً لكن حذار أن تصف هذا الدواء قبل أن تأخذ أجرك . وأن السر في ذلك راجع إلى الأفيون المسكن للألم وإن زوال هذا الألم وراحة المريض قد يقنعانه في عدم الحاجة إلى الطبيب فيبخل عليه بأتعابه . وهكذا بدأ الشعر بالغبن الذي كان يقع على زملائنا الأقدمين إذا ما صادف علاجهم نتيجة ناجعة .

واستعمل القطران في التحنيط في العصر اليوناني والروماني . وكان يؤتى به من البحر الميت . وحدث بعد ذلك أن زاد اعتقاد القوم في فائدة القطران في حفظ الجثث فعلت منزلته من الوجهة الدينية . ثم نسي القوم الفائدة الأولى للقطران ونسبوا مفعوله إلى المومياات نفسها بصرف النظر عن القطران . ولا يخفى أن القطران مطهر للجهاز التنفسي . ولا يزال يعطى في الالتهابات الشعبية والرئوية والأنفية كما تعالج به عدة أمراض جلدية وغيرها فصل في القرون الوسطى في اوربا حتى القرن الثاني عشر ان كانت المومياات المصرية تعد الى أوربا كعقاقير تصحن وتباع في الصيدليات وتتاجر . ثم تراءى للقوم أنه اذا كانت فائدة جثث المصريين عظيمة بهذا الشكل فلم لا يستفاد بجثث المجرمين والمنتحرين بأوربا للغرض نفسه وفي ذلك اقتصاد وفي ذلك سهولة . وقد كان ذلك فأطلق القوم اسم (مومياء) بعد ذلك على اللحوم المستعملة دواء . وهكذا استمر هذا النوع من التجارة حتى القرن الثاني عشر . وكانت عبارة (مومياء) من مواد أقربازين تلك العصور .

واتضح لنا أن جانباً كبيراً من معلومات ديوسقوريدس (٥٠ ب.م) وجالينوس (١٣٠ — ٢٠٠ ق.م) وبليني (٢٣-٧٩ ق.م) وغيرهم مأخوذة بطريقة مباشرة من القراطيس المصرية القديمة . وان هذه المعلومات انتقلت بواسطة هؤلاء الفطاحل الى أطباء القرون الوسطى فصارت أهم أركان الطب النشبي (Materia) وتعاليم الطب القيمة في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وقد استمر علم الصيدلة المصرية محافظاً على جوهره بعد دخول المسيحية مصر . وفي العهد البوناني أخذت الصيدلة الاغريقية تمزج تدريجياً بالصيدلة الفرعونية .

الدكتور حسن كمال

الى الشعراء

ننقل هنا قطعة عن شكسبير عجد بها بريطانيا فرفعها الى السماء وجعلها قلعة الأرض . وأخرى عن شاعر لبناني من البرازيل هو « نعمه قازان » مجّد بها أرض لبنان فرفعها إلى السماء ، ولكن لم يلفها في عظمة الأرض كما لفّ شكسبير جزيرته . وأنت إذ تقرأ القطعتين ، تلمس القداسة تفيض من روح الشاعرين ، والتقديس يضفي على الأرض التي غاطبها كل منهم. أما روح الفخر فن شكسبير ، وأما روح العاطفة فن قازان . فهل من شاعر مصري ينسج لنا عن مصر « منبت المدنية العالمية » قطعة تسري في روعنا سريان ما قال شكسبير في روع أبناء وطنه ، وسريان ما قال قازان في روع أبناء الأرز . قال شكسبير .

This royal throne of Kings, this sceptered Isle,
This earth of majesty, this seat of Mars,
This other Eden, demi-paradise,
This fortress built by Nature for herself
Against infection and the hand of war,
This happy breed of men, this little world,
This precious stone set in the silver sea,
Which serves it in the office of a wall
Or as a moat defensive to a house,
Against the envy of less happier lands,
This blessed plot, this earth, this realm, this England (1)

* * *

وقال نعمه قازان :

لم يرض بالدنيا وير ضى من ترابك بالكفن
ما السر في هذا الترا ب فلا يُريد به ثمن ؟
فكأنما الدنيا السما وكأنّ « لبنانا » عدَن
لا تسألوا من أنت بل من أين أنت ، أجيب من
لُبنان ، من حد السّما ، من جنة الدنيا عَدَن (٢)

(١) King Richard II, Act II, Scene I.

(٢) من قصيدة « جبل الصور » .

السيكومتري

Psychometry

تقصي الأثر في لوحة الفضاء والزمن

ليس المقصود بالسيكومتري هنا ما يعنيه السيكولوجيون من قياس مدة الحالات أو العمليات العقلية وعدتها ، ولكن المراد بها هو تقصي أثر شخص بطريق سلعة من سلعه ، وذلك بأن توضع السلعة في يد الوسيط المتقصي أو على جبهته أو مقابل ضفيرته الشمسية . فاذا كان وسيطاً قديراً استطاع أن يدلي ببيان يتضمن تاريخ تلك السلعة وتاريخ صاحبها وما يتعلق به ، وقد يذكر شيئاً من مستقبله . وقد يتحدث الوسيط كذلك عن كل من لمس السلعة دون أن يخلط بين شخص وآخر ممن يكونون قد تناولوها بأيديهم .

ولم يعترف العلم بظاهرة السيكومتري هذه الا في سنة ١٩٤٠ حين تقدم الدكتور هتنجر Dr. Hettinger إلى جامعة لندن برسالته «القوة فوق المدركة The Ultra Perceptive Faculty» لنيل درجة دكتور في الفلسفة Ph. D. فنحته اياها وطبعت رسالته على نفقتها . ونجد في هذه الرسالة بحثاً مستفيضاً وتحليلاً دقيقاً لهذه الظاهرة . وقد روعي الأسلوب العلمي في هذا البحث إلى أبعد مدى . وقد وضحت الرسالة بجداول احصائية وخطوط بيانية ومعادلات جبرية خرج منها المؤلف بأن الظاهرة حقيقية في ذاتها ، وان كان قد ترك التعليل لها معلقاً .

التجريب العلمي

وقد تناول الدكتور هتنجر تاريخ التجريب في هذه الظاهرة فقال : —

(١) إن معظم التجارب التي أجريت في الماضي كانت عرضية وصل البحّاث منها بطريق الاستنتاج والاستقراء الى القول بأن لهذه القوة السيكومترية وجوداً حقيقياً . وانتهى هؤلاء البحّاث إلى أنه ما دام قد ظهر أن عدداً كبيراً من التجارب التي أجروها ينم عن حقيقة

وأن وسائل الادراك العادية لا يمكن أن تعلل للظاهرة ، فلا بدَّ إذاً من وجود قوة أخرى خارجية هي التي يصح أن تنسب اليها هذه الظاهرة . ويرى الدكتور هتنجر أن المشاهدات التي من هذا الطراز لا يمكن اعتبارها متضمنة برهاناً علميًّا .

(٢) أجريت تجارب بقصد تعيين كم من المواد أو البنود التي يدركها الوسطاء يكون صحيحاً ، ودوّنت النتائج على صيغة نسب مئوية من مجموع المواد التي أدلوا بها — الصحيح منها وغير الصحيح . ومع ذلك فلم تعتبر هذه النسب المئوية مهما كانت مرتفعة دليلاً على القدرة السيكومترية .

(٣) لاحظ بعض البحّاث أن السلع المقدمة للفحص تختلف كثيراً من حيث الأهمية والنوع . وقد اختلفت من ثمَّ تقديراتهم ، ولكنهم بنوا احصائياتهم على هذا الأساس . ولطريقة « التقدير » تلك عيوبها التي تقعد بها عن تقديم البرهان الحاسم المطلوب .

وذكر الدكتور هتنجر أسماء المؤلفات المتضمنة تجارب تدخل في نطاق هذه الأقسام الثلاثة سالفة الذكر ، وقد صدرت هذه المؤلفات في المدة ما بين سنة ١٨٤٢ وسنة ١٩٣١ ، وهي ما بين انجليزية وأمريكية وفرنسية وايطالية وألمانية .

(٤) وعاد الدكتور هتنجر فقال : إن بعض الحالات السيكومترية المدوّنة في هذه المؤلفات تتضمن أحداثاً خطيرة يصح اعتبارها شاذة من حيث قيمتها . ومع ذلك لم يشأ أن يعتبرها برهاناً على وجود هذه القوة .

(٥) يقول الدكتور هتنجر إنه على الرغم من أن ارجاع النسب المئوية للصحيح من هذه التجارب التي تضمنت ادراك أمور غريبة أو معرفة شاذة لحقائق واقعية — على الرغم من أن هذا يميل بالباحث الى ناحية الاقتناع ، فان كثيرين من البحاث يرون أن هذا غير كاف . وهم عاجزون عن فهم كيف أن الوسيط يدرك أمثال هذه الأمور . يفسرون ذلك للمصادفة . والمصادفة أمر جائز في الواقع ولكن تجارب الدكتور هتنجر قد روعي فيها سد هذه الثغرة ومن ثمَّ أمكن استبعاد المصادفة .

(٦) راعى الدكتور هتنجر هذه العوامل كلها ، ومضى يجرب بطرائق متعددة متباينة تفرعت كل واحدة منها من التي سبقتها ، أي أن التجربة اللاحقة كانت تطوراً لتجربة سابقة

وذلك بالتغلب على جميع المآخذ أو أوجه النقص التي لوحظت في سابقتها ، فأمكن الوصول في النهاية إلى تجارب تخطت بقدر الإمكان كل نقد .

وظلت التجارب احصائية على طول الخط برغم تغير الأسلوب بالتدريج ، وبذل مجهود لجعل الاحصائيات بسيطة بقدر الامكان وبحيث يمكن استخلاص النتائج منها على الفور ونذكر فيما يلي النقط الهامة التي راعاها الدكتور هتنجر خلال تجاربه : —

ا — أي السلع هي الأفضل للحصول على خير النتائج ؟

ب — هل السماح للوسيط بتناول السلعة نفسها بدلاً من مظروف مختوم يحتوي عليها يؤدي الى نتائج أحسن أم أسوأ ؟

ج — هل من الضروري أن يتناول الوسيط السلعة بيده ، وهل يمكن الحصول على نتائج بدون تناول أي شيء البتة ؟

د — هل معلومات المجرب الشخصية عن الأشخاص الذين تُستقصى آثارهم من سلعهم تعطي نتائج أحسن من تلك التي يحصل عليها من سلع أشخاص مجهولين منه تماماً أم لا ؟ ويلاحظ أن المجرب غير الوسيط .

هـ — إذا سبقت سلعة لمجرب بقصد تقصي أخبار صاحبها فأبقاها عنده عدة أيام قبل أن يسلمها للوسيط فهل الأنباء المستقاة بوساطتها تتمحور على صاحب السلعة نفسه دون المجرب أم تكون خليطاً بين ما يتعلق بهذا وما يتعلق بذاك ؟

و — هل الأشخاص الذين تتقصى آثارهم يتباينون فيما بينهم من حيث الوسطاء الذين يقومون بعملية التقصي من هذه السلع ؟

ذلك كان الدستور الذي وضعه الدكتور هتنجر لتجاربه التي شرحها في كتابه « القوة فوق المدركة » مالف الذكر . وقد ختم كتابه بهذه الكلمة . قال :

« إن الرأي المبسوط في هذا الكتاب قد لا يفي بإشباع نهم المتطلع ، ولكن كاتب هذه السطور لا يجرؤ في الوقت الحاضر على المضي إلى أبعد من ذلك . وان لضيق بالحقائق يمنعه من الاجتراء على تقديم أي نوع من الحدس الذي ربما يكون قد جال بخاطره خلال هذا البحث . وهو يرى أن لابدّ من الضيق بالحقائق لأن مجرد الحدس لا يمكن أن يشبع

التطلع العلمي إشباعاً تامًّا . ويدل تاريخ العلوم المطردة التقدم على أن النظريات الخدسية تجيء وتذهب ، ولكن الوقائع تبقى . لهذا يجب أن نلصق بالحقائق الواقعية هذه كلما ثبتت واحدة منها بعد أخرى ، وللمستخدم هذه الحقائق استخداماً انتفائيًّا للعثور على غيرها .

« إن التناول السيكولوجي للبحث الروحي قد أدّى الى بعض نتائج هامة ، فلنمض في سبيلنا على نفس النمط واثقين انه سيتلو ذلك ظهور كشوف أخرى قيمة . ولقد كانت البداية مبشرة ، ويبدو أنه لن يمر زمن طويل ، إذا نحن بحثنا في الظواهر الروحية ذات الصبغة الفنية ، حتى يتولد البحث الروحي تماماً كفرع خاص من السيكولوجيا أو كعلم شقيق لها »

هذا هو ماختم به الدكتور هتنجر كتابه ، ومنه يتضح أن الظاهرة حقيقية ولكنه لا يستطيع التعليل لها . وقد كانت السيكولوجيا تنكر هذه الظاهرة كما كانت تنكر ظواهر التلبثي والجلاء البصري والجلاء السمعي ، وهي تلك الظواهر التي اعترف بها العلم أخيراً كما اعترف كذلك بالسيكومتري . والظاهر أن عجز الدكتور هتنجر أو احجامه عن التعليل راجع إلى تقييده نفسه في بحثه بالعلوم المادية وفي مقدمتها السيكولوجيا بشكلها الحاضر ، اي السيكولوجيا المادية التي تنكر الروح . ويا عجباً لعلم النفس الذي ينكر وجود النفس !

أمثلة سيكومترية

ننتقل بعد هذا الى ذكر أمثلة توضيحية تقرّب الظاهرة الى الأذهان فنقول :—

(١) يروي العلامة أوسبورن Osborn في كتابه النفيس « ما فوق الفيزيقي The Superphysical » حادثة عن وسيط اعتاد هو أن يجري معه بنفسه تجارب سيكومترية . ففي ذات مرّة وضع في يد ذلك الوسيط خطاباً ولم يمكنه من رؤية ما فوق المظروف من كتابة ، فقال له الوسيط : « يشعرني هذا الخطاب بعهد الشباب . . . ومع ذلك فان الكاتب له امرأة ذات شعر أبيض . وأراها تسير ليلاً في حجرة . وها هي ذي تجلس مغرقة نفسها في تفكير عميق . هي سيدة بشوش . . . هي أحياناً تفيض حناناً يستدر الدمع من العيون . . . وهناك أيضاً رجل متقدّم في السن ، ذو شارب أبيض ولحية بيضاء لطيفة . ويخيّل إليّ أنهم ينادونه يا دكتور . ولكنه على ما أرى من أهل الفنون . . . أرى أنه قد كتب للمجلات مقالات كثيرة في الأدب والنقد وما إلى ذلك . فهو يكتب كثيراً وأعتقد أنه

يحاضر كثيراً كذلك . وهو متوسط الحجم ، لا ضخم الجثة ولا ضئيلها . وليس لجسمه مظهر خاص ، أما رأسه وعيناه وملامحه العامة فذات مظاهر خاصة . إنه يتعصب لرأيه ، ويفرط في حبه لوطنه حتى لقد يبذل حياته في سبيل بلاده » .

وعقب أوسبورن على ذلك بقوله « والخطاب كتبته لي وأنا في استراليا صديقة في انجلترا . وقد صدق الوسيط في وصفه ملامحها ، فشعرها أبيض ، ولكنها رقيقة وفيها جمال الشباب . وصدق كذلك في وصفه ملامح الرجل ، وكان دقيقاً للغاية في وصفه سجاياه . والرجل والسيدة من أهل الفن والأدب حقيقةً . وهو كاتب مفكر مبتكر في تفكيره وابتكاره . على أني لم أتبين فيه أية نزعة من نزعات التعصب ولكنه من أصل روسي ولهذا فربما كان مزاجه أحدّ من المزاج الانجلوسكسوني » .

ويقول أوسبورن عن هذا المثل السيكومتري انه قد يكون خطيراً ولكنه غير مقنع لعدم امكان استبعاد التلبثي منه . ويقول ان الوسيط ربما يكون قد استخلص منه هذه المعلومات لا من الخطاب ، وهو لا ينكر أن ذلك في ذاته عظيم ولكنه لا يساعد على إثبات ما يريد . على أنه قال مع هذا « أرى لزاماً عليّ أن أذكر هنا أنني لم أنجح قط في التواصل مع هذا الوسيط بالتلبثي على الرغم من محاولتي ذلك في عدّة ظروف » .

(٢) وفي الحادثة التالية التي يرويها ماترلنك يمكن أن يقال ان فكرة التلبثي قد استبعدت تماماً ، أو هي استبعدت على الأقل بين راوي الخبر والوسيط المتقصي الأثر . قال ماترلنك في كتابه « الضيف المجهول » ما يأتي : —

« تسلمت من انجلترا خطاباً يرجوني فيه كاتبه أن أكتب له كلمة بخطي ... وكان الخطاب رقيقاً خالياً من الصنعة وليس فيه ما يفصح عن كاتبه . ودون معرفة البلد الذي جاءني منه الخطاب وضعته في مظروفه بعد أن أريته لزوجتي ، ثم حملته الى مدام . . . وبدأت هذه السيدة تقصيها بأن وصفتني أنا وزوجتي ، فقد لمسنا نحن الاثنين الورق . وسألناها أن تتركنا وتنتقل الى كاتب الخطاب . فقالت ان الكاتب فتاة في الخامسة أو السادسة عشر لم تتعدّ بعد طور الطفولة . وقد كانت صحتها بين بين ، أما الآن فهي في صحة جيدة جداً . وكتبت الفتاة الخطاب وهي في حديقة غناء أمام بيت كبير ضخم مبني وسط تلال الريف .

وجلست تداعب كلباً كبيراً مجعّد الشعر طويل الأذنين . ومن بين غصون الأشجار كان يظهر لها البحر ... هذا هو ما قالته الوسيطة . وقد وجدنا بعد التحري أن هذه التفصيلات كلها حقيقية تماماً . ولم يكن الخطأ إلاّ في الزمن كما هي العادة ، فالفتاة وكلبها لم يكونا في الحديقة في اللحظة التي رأتهما فيها الوسيطة » .

في هذه الحادثة لا نستطيع أن ننسب استقاء المعلومات الى قراءة الوسيطة بالتلبثي ما يكون دائراً في خلد مارلنك وزوجته لأنهما لم يكونا قد عرفا بعد شيئاً عن كاتب الخطاب. فهل نستطيع إذاً أن نقول أن الخطاب نفسه يحمل بطريقة غامضة طابعاً لمميزات كاتبه ووسطه ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فهل يكون المنظر والحالة قد انطبعا كذلك في الخطاب وقت كتابته ، ويكون الخطاب قد نقل ذلك كله الى الوسيطة فتحدّثت عنه ؟ ان مارلنك روى الحادثة فقط ولم يحاول تفسيراً .

(٣) أما الحادثة التالية فيتبين منها أن الوسيط حصل من خطاب على آراء كاتبه وأفكاره ومشاعره وعواطفه ساعة كتابته . وهذه الحادثة إحدى تجارب الدكتور باجنستشر Dr. Pagnstcher في السيكومتري على الوسيطة الشهيرة السنيورا ماريا ريس دي ز Senora Maria Reyes de Z وهي سيدة مكسيكية لها مكانتها في المجتمع . وقد دوّنت هذه الحادثة في صحيفة جمعية البحوث الروحية البريطانية بالصفحتين ٢١٨ — ٢١٩ من المجلد الحادي والعشرين كما يلي : —

« الدكتور باجنستشر صديق في اليابان أرسل الى محامٍ في مدينة المكسيك مظروفاً يحتوي على خطاب منه للدكتور باجنستشر ومظروفين مختومين يحتوي أحدهما على ورقة كتبت في ظرف حرج ، ويحتوي الثاني على وصف لمن ظنّ انه كاتب هذه الورقة . وقد طلب كاتب الخطاب الى الدكتور باجنستشر أن يقدم المظروف الأول الى السنيورا ماريا على أن لا يسمح بفتح المظروفين إلاّ بعد انتهاء الجلسة . وأجيب الكاتب الى ما طلب . وحضر تلك الجلسة كل من الدكتور باجنستشر والدكتور برنس . وتحدّثت السنيورا عن سفينة وسط بحر في ليل بهيم ، وعن ركابها الكثيرين الفرعين الذين يتحدّثون بالانجليزية وقد تمنطقوا بأحزمة الخطر . ثم جعلت تصف في شيء من التفصيل رجلاً له فوق حاجبه الأيسر

نديبة جرح ، ينزع ورقة من مذكرة جيب صغيرة ثم يكتب عليها ، وما إن سمع صوت انفجار حتى وضع الورقة في زجاجة ثم رمى بها في البحر . ولما أزيلت الأختام في حضور الدكتور برنس والدكتور باجستشر عرفت الحقائق الآتية ، وكانت حتى ذلك الوقت مجهولة من الحاضرين كلهم : —

« فأما المظروف المقدَّم للسنيورا فكان يحتوي على ورقة كأنها نزعت من مذكرة جيب، وقد كتب عليها بسرعة وبلغة اسبانية ما ترجمته :

« السفينة تغرق . وداعاً يا عزيزتي لويزا . اعملي على أن لا ينساني أولادي .

زوجك رامون

« هافانا — أسأل الله كذلك أن يرعاني ويرعاك . وداعاً » .

« وقد وجدت هذه الكتابة على ورقة في زجاجة التقطت بجوار شاطىء الآزور . ومن التحريات التي أُجريت في هافانا علم أن هذا الرجل الذي لأسباب سياسية أقام هناك باسم رامون ب . Ramon B. قد اختفى سنة ١٩١٦ ، ويشبه خطه كل الشبه الخط المكتوب في تلك الورقة التي وجدت في الزجاجة ، وأن له زوجة تدعى لويزا ، وأن له منها بنين . ويظن انه غادر هافانا الى أوروبا . واعتقدت زوجته أنه لقيَ حتفه في حادث غرق الباخرة لوزيتانيا أما شكله بما في ذلك ندبة الجرح فينطبق بالضبط على الوصف الذي ذكرته السنيورا »

(٤) ويروي الدكتور ولز Dr. Wills عميد كلية العلوم والبحوث الروحية بالولايات المتحدة في كتابه « الحياة الآن وإلى الأبد » قصة خلاصتها أن شخصاً قصد الوسيطة الأمريكية الشهيرة مسز مدلتون هجنز Mrs. Middleton Higgins يسألها أن تحدثه بشيء عن أبناء أخيه المتغيب . ولما سألته أن يجيئها بسلعة من صلعه جاءها بقبعته . وما إن أمسكت بها حتى مضت تصفه في دقة متناهية ، ثم قالت انه كان يسير ليلاً بجوار النهر فزلت قدمه وهوى فيه وغرق . وقالت ان التيار قد جرفه وان جثته قد احتجزت بين صخرتين ، وأبدت استعدادها لتعيين مكان الجثة إذا هي ذهبت الى النهر . ولما عجز البحّاث عن العثور على الجثة رغم اتباعهم كل وسيلة ممكنة عادوا اليها فصحبتهم الى النهر ، وهناك وقفت عند نقطة قالت إن الجثة هنا . فاستعملوا شباك الصيد ولكنهم لم يفوزوا بطائل . فسألتهم أن يجيئوا

بسارية طويلة ويتحسسوا بها ما بين الصخور ، وسرعان ما لمست السارية شيئاً طريًّا أملس ، واكتشفت الجثة على الفور ، وقد وجد الرأس محجوزاً فعلاً بين صخرين فرمت الجثة هناك . ويلاحظ أن الوسيطة لم تكن لها معرفة سابقة بأي شخص من الذين شهدوا الحادث أو كانت لهم صلة بالغريق .

ثلاثة فروض نظرية

يتضح من هذه الأمثلة أن السلعة المادية كانت العامل الأكبر في التقمص ، وأنه بدونها ما كان يمكن الانتفاع بقدرة الوسيط المتقمص . فبماذا يمكن تفسير هذه الظاهرة ؟ لقد قدم البحّاث ثلاثة فروض وناقشوها كما يلي : —

(١) إن السبب في حصول الوسيط على المعلومات من السلعة مع خلوّها من كل ميزة خفية هو أن حواس الوسيط أرهف من حواس غيره ، أو أنها تكون في الحالة التي يسميها السيكولوجيون حالة « زيادة الحس » .

(٢) أن تكون السلع قد امتقعت فيها طابع الحوادث كما تستبقي اللوحة الفوتوغرافية صور المرئيات .

(٣) إن السلع ليست مصدر هذه الرؤى برغم تأثرها بالطاقات النفسية أو القوى الروحية ولكنها تعمل على جعل الوسيط يستجيب للاشخاص الذين لمسوا السلعة ولما جرى من أحداث .

فأما عن الفرض الأول فلا شك أن بعضهم يفسر به بعض الحالات فراراً من التفسير الروحي ، وخاصة في حالات الوسطاء المنوّمين تنويماً مغناطيسيًّا . ولكن في الحالات التي نحن بصددها يكون الوسطاء غير منوّمين . وقد يستطيع الوسيط الالمام بعدد خصه خط الكاتب أن يستنتج بعض المعلومات الغريبة المدهشة بغير طريق ذلك الحس المرهف اللهمّ إلا إذا اعتبرنا القراءة المكتسبة من تجاريب الحياة حسًّا مرهفاً . وبرغم أن « زيادة الحس » الموعومة هذه مجرد مصطلح سيكولوجي مائع فإن السيكولوجيين مافتئوا يزحون به كثيراً وإلى أقصى حد كتفسير لمثل هذه الأحداث ولكن الفاحص للحالات السيكومترية

المتعددة المتباينة يستطيع أن يقنع نفسه بأن هذا الفرض النظري البحت (على أقل تقدير) لا يمكن تطبيقه على غالبية الحوادث. ولا جرم أن كمية الأنباء التي تستطيع سلعة أن تفصح عنها لا بد أن تكون محدودة. فاذا كان هذا الشخص يرهف الحواس. وعدا هذا فمسألة «زيادة الحس» هذه إذا صلحت أن تكون تفسيراً لمعرفة السجايا من مجرد قراءة الخط مثلاً فهي لا تساعد على أن تفسر كيف أن الوسيط يصل الى معرفة ما يكون قد وقع لكاتب خطاب مثلاً من حوادث بعيدة أو قريبة، وربما يكون بعضها قد وقع قبل كتابة الخطاب بل حتى قبل التفكير في كتابته. ولو أننا سلمنا بصحة هذا الرأي تفسيراً لبعض الحالات فإن انطباقه على حالات كثيرة أخرى لا يكون عقلياً فحسب بل يكون مضحكاً أيضاً.

وأما الفرض الثاني فمن السذاجة بمكان، ولا يؤيده منطق الأمر الواقع، لأنه اذا كانت الأحداث تنطبع في السلعة انطباعاً فوتوغرافيًّا استطاع الوسيط أن يتقصى الأحداث التي تكون السلعة قد لعبت فيها دوراً. ولكن الحال ليس كذلك دائماً، فالمثل الرابع سالف الذكر المنقول من كتاب الدكتور وزهام لسببين: أولهما انه يستبعد التفسير بالتلقي استبعاداً تامًّا. وثانيهما: أنه يقضي كذلك على الرأي القائل بأن السلع تتأثر بطابع فوتوغرافي لأن القبعة التي سعت لمسز مدلتون أخذت بالطبع من سلع الغريق الموجودة بالمنزل لا مع الجثة

واذاً لا يبقى أمامنا إلاَّ الفرض الثالث لأنه أكثر الفروض احتمالاً. فالسلعة كانت الصلة الظاهرية. والمعلومات لم تجيء من السلعة بل من صاحبها مباشرة، لأن الوقائع حدثت للشخص صاحب السلعة التي كانت حلقة اتصال بين صاحبها وبين الوسيط، وهي التي مكنته من الاستجابة له والتوافق معه. وها هي ذي مسز مدلتون قد استطاعت أن تعرف حوادث تتصل بالرجل المفقود عن طريق قبعة لم تشترك في الحوادث.

هل تستبقي السلع طوابع روحية؟

وحتى لو أخذنا بالفرض الثالث فإنه تبقى لدينا مسألة أخرى هامة هي مسألة صلاحية الأجسام المادية لأن تكون حلقة اتصال بين شخصين. ترى ما الذي يحدث في السلعة المادية المتجهة لملامسة إنسان أيها؟ هل تتأثر تكوينها الالكتروني؟ لو أن هذا حدث لتوقعنا

ظهوره على صورة تغير كيماوي لأن الالكترونات والبروتونات هي في الجملة العناصر النهائية في الجزيئات والذرات الكيماوية ، وإن يكن العلم قد أثبت وجود جسيمات أخرى غير الالكترونات والبروتونات . ولكن هذه الجسيمات لا تحتل من فضاء الذرة إلا بنسبة ما تحتله بضع هباءات من التراب في جوّ قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة فؤاد الأول مثلاً . وكما يقول العلامة إدنجتون أستاذ الفلك في جامعة كمبردج في كتابه « طبيعة العالم الفيزيقي » « لو أننا محونا الفضاء الخلاء الموجود في جسم الانسان ، وجمعنا إلكتروناته وبروتوناته لوازاً في كومة واحدة فإن الانسان يتقزل إلى هباءة لا ترى إلا بعدسة مكبرة » .

وهذا الفضاء بدوره أصبح لا يعتبر خلاءً خاوياً لأن الأثير يتخلل الفضاء والمادة معاً فهل يا ترى يتأثر ذلك الأثير الموجود في سلعة ما بالمؤثرات النفسية الروحية ؟ ولكن الأثير لا يمكن تحديده برغم أنه مكننا من تفسير بعض الظواهر ، وليس ثمة في الأثير ما يدفعنا إلى القول بأن أثير السلعة يستطيع أن يستبقي الطوابع الروحية . وإذاً فأين يمكن أن تستبقى هذه الطوابع إن كانت تستبقى حقيقةً ؟ ليس أمامنا كما يقول العلامة أوسبورن إلا ذلك الفضاء الالكتروني الذي ربما كان مقرّاً لأنواع من الطاقة لم تعرف بعد حتى ولم تتخيل ، وأن لأنواع هذه الطاقة اهتزازاتها الخاصة التي يدركها بعض الوسطاء ، ثم يترجمونها بدلالة ما يكون قد تمّ من أحداث ونشأ من آراء .

***

وقد رأينا من الأمثلة التي ضربناها أن الوسيط لا يمكن أن يستخلص كل معلوماته من السلعة نفسها ، وإن تكن هي العامل الأكبر في استخلاص المعلومات ، وإذاً فكأن الاستجابة إلى اهتزازات هذه الطاقات النوعية للسلعة تمكن الوسيط أيضاً من الاستجابة الى اهتزازات العامل الأكبر في ايجاد هذه الطاقات ألا وهو الشخص أو الأشخاص الذين لمسوا السلعة وبمجرد حدوث هذا الاتصال المباشر بهؤلاء ينتهي عمل السلعة .

« يتبع »

الدكتور فريدي ابو الخير

الدُّومِنْكِيُّون — Dominicans

Fratres Praedicatores (rendered in English Friars Preachers, Preaching brethren or Friars, Perdicants, or Order of Preachers).

احدى فرق الرهبان المتجددين أسسها القديس « دومنجو ده جوزمان » (Domingo de Guzman) في لانجدوك (Languedoc) بفرنسا وأجازها البابا في سنة ١٢١٦

ويؤخذ من الاسم الاصطلاحي ما يفيد معنى الرهبان الواعظين أو المبشرين . وكان الوعظ والتعليم الديني من أغراضها الرئيسية . وقد نشرها مؤسسها في ايطاليا واسبانيا ، ومن ثم انتشرت في الممالك الاخرى . وسموا في انجلترا « الرهبان السود » The black Friars لانهم يلبسون معاطف سود ، وسموا في فرنسا اليعقوبيين ، نسبة الى كنيسة القديس يعقوب (Jacobus) وقد اتخذتها هذه الفئة مقراً لها في باريس ، عند أول ظهورها فيها .

أما مناهجهم فقائمة على خطة القديس أوغسطين وتتحصر في الفقر والتقشف والصوم والصمت ، ولكن ربما تخلوا عن الصوم والصمت ، اذا اعترضها القيام بالواجبات العملية .

أيستطاع تسيير

السيارات والطائرات بالطاقة الذرية

الأشعة الكهربية ووسائل الوقاية من أضرارها

يعتقد العلماء الآن ، انه لن يتيسر لاحد ركوب سيارة أو طائرة تسير بالطاقة الذرية . وهم لا يدرون متى يتحقق هذا الحلم العلمي ، هذا إذا سهل تحقيقه يوماً ما . زاعمين أن الصعوبة القائمة الحائلة دون بلوغ هذه الأمنية ليست مالية بل وقائية لأن المهتمين كل الاهتمام بهذا الموضوع ينعبون الى انه سوف يأتي عهد في جيلنا الحالي ، يغدو فيه (حرق) عنصر الأورانيوم ، أقل نفقة من استهلاك الفحم الحجري وقوداً . ومصدر الخطب هو أن أية كمية ضئيلة من الطاقة الذرية يتاح للمرء انتناؤها ، تنبعث منها مقادير هائلة من الأشعة الخفية القتالة ، وهي مقذوفات كهربية تبيد الأنسجة الحية . وليس في وسع أية حاسة من الحواس البشرية ، الشعور بها أو التحذير من ضررها . وانما تحس بها آلات خاصة .

وإنما تستطاع الوقاية من أخطارها بوسيلة واحدة ، هي حصر المواد التي تنبعث منها هاتيك الأشعة ، في صفي عريض الجدران ، متينها ، تكون حيطانه مؤلفة من أية مادة عازلة وأفضلها الماء ، والرصاص والآجر المسلح « الخرسانة » فاذا شئنا مثلاً صنع محرك لسيارة مما قوامه الطاقة الذرية ، فلا بدَّ لنا من إحاطته بحاجز من الآجر المسلح تتفاوت ثخانته بين أربع أو ست اقدام . هذا إذا تيسر صنع هذه الحواجز التي تبلغ زنتها زهاء مائة طن . وتجاه هذه العقبة يتبين لنا إذن عقم محاولة صنع سيارة أو طائرة ذرية للركاب على هذا النمط .

ومع ذلك فهذه الصعوبة لا تبلغ ذروتها إذا أريد صنع قاطرة أو باخرة ذرية من عابرات المحيطات ، إذ يمكن حينئذٍ تهيئة المصانع التي تولد البخار أو الكهربا ، التي قوامها الحرارة

الذرية ، ثم اتخاذ الوسائل الواقية لمهاجمها وذلك في باطن حيطانها نفسها .

ولا غرو فان الأشعة القتالة التي تولدها المواد الشعاعة ، تؤلف من ذريرات دقيقة جداً من الطاقة الكهربية والمادة ، تنطلق بسرعة هائلة شديدة مذرٍ .

ومن هاتيك الأشعة ، النيوترونات ، وأشعة غمًّا الثاقبة والمعتدلة ، ودقائق ألفا وأشعة رنتجن ، وكل من هذه جميعاً ، يتولد من طاقة إشعاع معينة فتحدث حروقاً غائرة في الجلد أشد مما يتولد من أشعة رنتجن أو من فرط التعرض لأشعة الراديوم مثلاً . وينجم عن فرط الاستهداف لها ، شلل التقي « مخ العظام » ومنع تجمد الدم ، وتناقص عدد الخلايا الدموية وهذه هي الظاهرة التي يطلق عليها الأطباء اسماً عامًّا ، هو « التسمم بالأشعة السينية » ويقترن هذا التسمم بالحروق المشار اليها .

وقد يقضي مصدر الأشعة على الانسان في ثانية من الزمان . وربما يهلكه بعد انقضاء أعوام . وذلك يتوقف على مبلغ الدرجة التي يتعرّض فيها المرء لهاتيك الأشعة .

وليس المقصود من هذا القول إن أخف تعرض لها ، يقضي ترًّا على المتعرض إذ أننا جميعاً نستهدف للأشعة الكونية التي تنبثق من رحاب الفضاء ، فتغمرنا طيلة العمر . وكذلك تحتوي الأرض والماء والهواء جميعاً ، على مقادير طفيفة من المواد الشعاعة . وتستعمل أيضاً أملاح الراديوم وغيرها من المواد الشعاعة في علاج الأدواء ، دون خطر على الشفاء ، وذلك بالامعان في السيطرة على (الجرع) لكيلا تزيد على المقدار الناجع الذي ينفع المريض ولا يضره . أما المواد الخفيفة الاشعاع فتستعمل دون ضرر كعناصر مرشدة ، في مباحث التغذية الخاصة بحياة النباتات[1] .

وفي جامعة كلفورنيا حيث يستخدم العلاّمة الدكتور إرنست لورنس ومعاونوه من علماء الطبيعة جهاز تحطيم الذرة المسمى « سيكلوترون » ، ويبلغ ارتفاعه ٦٠ عقدة أصبع ، تتخذ احتياطات متقنة جداً اجتناباً للضرر الذي يتعرّضون له ، عن طريق الأشعة التي يولدها ذلك الجهاز .

(١) راجع مقالاً عن الذرات المشعة ومنافعها الطبية وذلك في مقتطف ديسمبر ١٩٤٣

وقد كان جهاز بركلي لتهشيم الذرة ، ذريعة خطيرة الشأن ، في المباحث التي أفضت الى اختراع القنبلة الذرية . ذلك أن العنصر الكوني الجديد المسمى بلوتونيوم plutonium قد تم تكشفه بمساعدة جهاز تحطيم الذرة ، وهو عنصر يتولد من الأورانيوم ٢٣٨ الذي كان معتبراً دائماً خادم الفائدة ، فأصبح عظيم النفع ، إذ هو يزيد الطاقة الذرية التي يمكن استخراجها من أية كمية من الأورانيوم المخام ، زهاء مائة مرة .

والواقع انه عند ادارة جهاز تهشيم الذرة ، تتولد منه شعاعة نيوترون ، وذلك في الهدف الذي يصوب اليه . وهذه الشعاعة تعدل أختها التي تتولد من مئات أرطال الراديوم التي ، مخلوطة بعنصر البريليوم . فاذا عنت تقدير طاقة السيكلوترون ، تقديراً صائباً لا بد أن تعرف أن الجرام من الراديوم ، يجب أن يحفظ في خزانة من الرصاص ، تبلغ زنتها مئات الأرطال ، وقاية لكل من يقربها من الناس الذين يتعرضون لتأثيرات أشعته الثاقبة .

ولهذا السبب يحاط جهاز تهشيم الذرة بحواجز مائية يبلغ عرضها خمس أقدام ، توضع في أحواض فولاذية كبيرة متنقلة . ثم تزاد هذه الوقاية المائية حتى تصل الى عشر أقدام ، يضاف اليها قدمان من الآجر المسلح ، وذلك في الجانب الذي يقع تجاه الهدف مباشرة .

ويتخذ الماء بدلاً من الرصاص ، أو الآجر المسلح كوسيلة أساسية للوقاية من خطر الأشعة لأن الحياض يُتاح نقلها من الطريق عند ما تمس الحاجة الى احداث تغييرات كبرى في جهاز السيكلوترون .

أما الأشعة التي تصوب تصويباً رأسياً ، فتمتصها المياه التي تخزن في أحواض تثبت بباطن السقف ، تسع أربع أقدام من الماء وتصنع من الآجر المسلح .

ولتحقق من استحالة ولوج أي امرىء كان ، حجرة السيكلوترون ، في أثناء إدارته ، يوضع في الممرات الموصلة اليها ، رتاجات محاجزة ، يجب رفعها عندما تمس الحاجة الى ذلك واذا ما رفعت ابتغاء الدخول ، تحرك توّاً مفتاح كهربي فيقف سريان الطاقة الكهربية في مجراها .

ويكتسب السيكلوترون نفسه خاصية الاشعاع ، وذلك من استعماله لتحطيم الذرة فيجب اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمناعة المشرفين على ادارته ، حيما يراد احداث تغييرات أو ترميمات فيه . ومن أهم العوامل في هذه الحالة ، الابتعاد عنه ما أمكن .

وتستخدم هذه الذاية في معظم الاشغال التي يحتاج اليها جهاز تحطيم الذرة ، منكات ومفاتيح انكليزية ، يبلغ طول كل منها ثلاث أقدام . ولكن يحظر على أي عامل مباشرة عمله في الجهاز الا بعد أن يقيس مبلغ الاشعاع الذي يلتقط من جزئه السليم الذي سيجري فيه العمل المرغوب ولذلك يستعمل مقياساً يبين له هل تعرضه لمفعول الجهاز ، بضع ثوان ، أو بضع دقائق أو ساعة كاملة مثلاً يخلو من الضرر أو لا ؟

أما الأهداف التي تسدد اليها قذائف السيكلوترون ، وكذلك سائر المعدات التي تكتسب خاصية الاشعاع ، فهذه لا بدَّ من إخفائها في مستودعات منفصلة بعضها عن بعض وذلك في خزانة رصاصية الحيطان . وكذلك أجزاء السيكلوترون التي نبلى منه بالاستعمال تطمر في الأرض في مطامر خاصة طمراً عميقاً ، تخلصاً من أخطارها .

ويقوم الاحتياط الأخير ، بارتداء كل عامل من عمال تحطيم الذرة ، فوق ملابسه المألوفة ، شارة تحتوي على شريط من شرط الافلمة السينية ، على أن يلبس هذه الشارة أسبوعاً كاملاً ثم يحمض هذا الشريط ، فيظهر فيه مبلغ الاشعاع الذي استهدف له العامل ، وذلك وفق درجة التعتيم التي تسجل في الشريط .

ويحمل كل عامل منهم أيضاً في جيبه وعاء يشبه قلماً رصاصياً غليظاً ، لتلقي الشحنات الكهربية الذرية الموجبة أو السلبية . والقصد من ذلك أن العامل إذا خالجه أدنى شك في مناعته خلال تأدية عمله قريباً من السيكلوترون ، خرج من فوره من حجرته ، وقاس مقدار الشحنات الكهربية التي استفرغت من الوعاء المشار اليه ، فيتأكد له ، أي طوله استئناف عمله بوثوق في تلك الحجرة الجهنمية دون خطر أم لا .

وفي مصانع هانفورد الهندسية الضخمة في مدينة ريتشلند بإقليم واشنطون ، حيث تسخر الطاقة الذرية لصنع العنصر الجديد المسمى بلوتونيوم ، تتخذ أيضاً احتياطات أشد مما وصفنا آنفاً ، محافظةً على سلامة عمالها من أخطار تلك الأفعة القتالة .

وقد بذل المهندسون الذين قاموا بوضع رسوم المصانع السابقة الذكر قصارى جهدهم في إنشاء الوسائل الواقية للصناع ، لأن أولئك المهندسين جميعاً لم يسبق أن عهد اليهم في القيام بمثل تلك المهمة الشاقة . وما كان أيسر لبدري ملاذا عسى أن يكون مبلغ مراقب

الاستهداف لفعول الأشعة السالفة الذكر . ومن ثمة صار العمل على بكرة أبيهم لا يحدون هناك ضرراً على حياتهم ، ازاء ما اتخذ من العوامل الكافلة لوقايتهم .

وتتوقف الوقاية على أمرين أساسيين ، أولهما الوسائل الطبيعية الواقية المتفشية التي من شأنها امتصاص الأشعة التي تولدها المواد الشعاعة . وثانيتهما الحواجز المصاغة التي تحول دون وصول تأثيراتها الى العمال وما يكتنفهم في تلك الدائرة ، وثوق من سلامتهم جميعاً . ولذلك قدّر المطلعون جملة ما أنفق في ريتشلند ، بغية منع الضرر عن العمال ، بنحو خمسين مليوناً من الدولارات . أجل إن باباً عظيماً من هذا المبلغ قد صرف في اقامة الحيطان الضخمة المبنية من الآجر المسلح بحيث لا يخترقها الهواء وهذا إلى قيامها بوظيفتها البنائية أيضاً .

ثم إن المواد الشعاعة المنخرة في ريتشلند مغروسة في أحواض ضخمة تعلوها عدة أقدام من المياه . وهناك عربات سكة حديدية مخصصة لنقل المواد في أنحاء المصنع حيث أقيمت آلات رافعة للأثقال « ولفات » ترفع تلك المواد من العربات واليها . وبهذه الوسيلة يتاح التخلص من الحاجة الى العمال واجتناب شدة دنوهم من المنقولات .

وليس لذلك المصنع أبواب أو مداخل لدخول أية شعبة من شعبه التي تبلغ فيها الأشعة أوجها ، بل توجد هناك أجهزة ميكانيكية تقوم مقام العمال في أداء الأعمال التي على نمط واحد لا يتغير وذلك من مسافة بعيدة . ومنها بعض أشغال الصيانة التي يجب أداؤها في فترات معينة في بعض تلك المناطق الخطرة ، وهي الأشغال التي كانت تعمل عادةً بالأيدي . ولذلك آثر مهندسو المصنع المشار اليه ، اختراع أجهزة ميكانيكية تستطيع الدوران حوله دون أن تتأثر بالأشعة الناقبة جداً التي تصدر منه . فتقوم هذه الأجهزة بفك توصيلات الأنابيب ونزع الأنابيب الأخرى وتركيب بدلها ثم فك المسامير المحوّاة « البرمة » وتغيير التراكيب الكهربية وتركيب قطع غيار جديدة مما يقتضي التغيير في الجهاز .

وتحتوي الأجهزة الميكانيكية السالفة الذكر على آلات خاصة لرفع الأثقال ذات أذرع طويلة تصل عن طريق فتحات في حائط الآجر المسلح التي على الاماكن الخطيرة تلك المنطقة التي يستحيل على أي انسان ولوجها . وهناك أيضاً آلات ومفاتيح ميكانيكية لربط أجزاء

الاجهزة وفكها ، تديرها الطاقة الكهربية وهي متصلة بطارف ذراع الونش أو بزناجيره .

ويحمل كل عامل في المصنع الريتشلندي مكشافين كهربيين « الكتروسكوب » يشبهان قلم الجرافيت « الرصاص » وذلك في جيوب ثيابه قصد جعل كل مكشاف منهما مصححاً للآخر . وكذلك يفحص كل منهم فحصاً طبيًّا في فترات معينة ابتغاء التحقق من عدد خلاياه الدموية . وثمة احتياط هو الاخير من نوعه . ونعني به جرساً أوتوماتيكيًّا أي ذاتي الحركة ، يعلق فوق كل باب من أبواب خروج العمال من المصنع فيقرع قرعاً تحذيريًّا عندما يدنو منه أي عامل سرت في بدنه جرعات مفرطة من هاتيك الأشعة الوبيلة

ثم ان ملابس الكيميائيين القائمين بأعمال المعمل الكيميائي بالمصنع تقاس بعد لبسهم إياها وعقب غسلها أيضاً تحديداً لما تلوثت به من آثار تلك الأشعة الوخيمة العواقب ، واتخاذاً للوسائل الواقية من الضرر المحقق . ولذلك القصد عينه يفحص الدخان الذي يتصاعد من مداخن المصنع للبحث عما قد يحويه من الغازات والمواد السامة ، كما تفحص أيضاً مياه الآبار والمجاري الصالحة للشرب القريبة من المصنع لتقدير ما عساه يلحقها من زيادة في خاصية إشعاعها الطبيعية . وتحتم هذه الاوصاف الخاصة بالاحتياطات الواجب مراعاتها عند الاشتغال بالطاقة الذرّية ، قصر المصانع المنوي تأسيسها فيما بعد لتوليد مثل تلك الطاقة الذرّية ، على الاجهزة الثابتة الكبيرة . ثم إن أمل العلماء ضعيف حالياً جدًّا في انقاص حجم المواد العازلة التي تحاط بها هاتيك المصانع ، وفي خفض ثقلها خفضاً بالغاً . وذلك لأن النيوترونات مثلاً لا بدَّ من اصطدامها اصطداماً صحيحاً بأية مادة قبل وقوفها . وسبب هذا أن الدرع رصاصية كانت أو حرسانية اذا بلغت سُمكتها ربع عقدة أصبع ، لا تخلو من جزيئات كثيرة كالجمرة الشمسية . فإذا لم يكن ذلك الحائط أو الحاجز كثيفاً كثافة جسيمة لا يقوى على منع أذى الأشعة عن القريبين منها منعاً أكيداً . ولا جرم أنه لا يقصد من هذا القول ، نفي إمكان استخدام الطاقة الذرية في المستقبل استخداماً غير مباشر لتسيير السيارات الخفيفة . وكذلك يرى العلماء أن نقل الطاقة الكهربية لاسلكيًّا ، وهو الموضوع الذي طالما بحثوه ، ولما يظفروا بحله عمليًّا سيصير في حيز المستطاع حينما تنشأ المصانع الكبرى المركزية لتوليد الطاقة الذرية .

عبد الحميد عبد الرزاق

استكشاف

المنطقة الايونية

اكتشف علماء الطبيعة البريطانيون وبخاصة سير ادورد أبلتن ارتفاع وطبيعة الطبقات الجوية العليا التي ترد الامواج اللاسلكية وتكسبها ثانية نحو سطح الارض .

عندما نقل « ماركوني » أول اشارة لاسلكية عبر المحيط الاطلنطي ، سنة ١٩٠١ ، ووجه علماء الطبيعة بمشكلة غامضة من مشاكل العلم الطبيعي عملوا على تبيانها . فقد كان معروفاً عندهم من تجارب سالفة ، أن الامواج اللاسلكية تسير على نمط الامواج الضوئية ، بمعنى انها تستمر في خطوط مستقيمة ما دامت مادّة في محيط خصّياته الكهربية ثابتة غير متغيرة . ولما كانت خصيات الهواء الكهربية هي خصيات الاجسام العازلة بنفسها ، لم يتضح لهم السبب في أنها تتخذ طريقاً منحنياً هو الطريق الضروري أن تسلكه تلك الامواج من حول الارض متبعة كرويّتها .

كانت ظاهرة الانكسار من الظاهرات الطبيعية المعروفة — وعلمها أن شعاعة الضوء تنحني من حول شيء يعترض سيرها . وكان ما وصل اليه ماركوني في ذلك العصر من الممكن تعليله وفقاً لهذه الظاهرة . ولكن وقع بعد ذلك ما لم يكن في حسبان أحد من علماء الطبيعة . فان انحناء سطح الارض بين « پولدو » Poldhu في كورنوال ونيوفوندلند يتخذ صورة جبل ارتفاعه ٢٠٠ ميل ، وهذا انحناء عظيم حتى انه ليتعذر على الامواج تخطيه . واقد عكف لورد « رايله » وغيره من نابهي الرياضيين على هذا المشكل الطبيعي ، وانتهى تفكيرهم الى أن السبب غير راجع الى ظاهرة الانكسار . فان الاشارة اللاسلكية المتلقاة في نيوفوندلند قد كانت من القوة بحيث لا يمكن أن يكون سقوطها هناك راجعاً الى قوة انكسار الامواج . فلا بدّ إذن من سبب آخر

ولم ينتظر العلماء طويلاً . ففي سنة ١٩٠٢ وضع العالم الانجليزي أوليفر هيفيسايد نظريته

المشهورة في الطبقة الجوية التي فيها خصية التوصيل وهي طبقة تكون في الأجواء العليا طبقة من طبيعتها أن تلك مع الأمواج اللاسلكية سلوك لوح من المعدن ، فتجعلها تُصَوَّب من مجالها العلوي وترتد ثانية نحو الأرض . وقد قوبلت هذه النظرية بكثير من الشك بالرغم

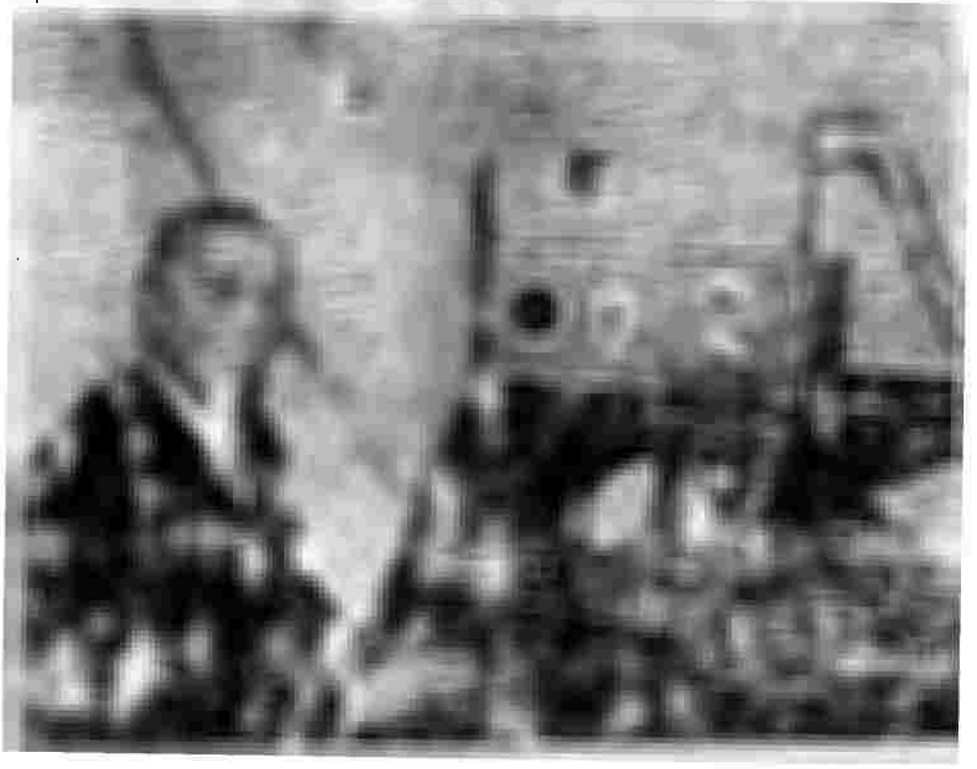

سير ادورد أبلتن

صاحب البحوث الطريفة في الأمواج اللاسلكية ، ومنح لقب سير سنة ١٩٤١ ، وهو الآن رئيس « اتحاد البحوث اللاسلكية العلمية الدولي » ، وسكرتير مصلحة البحوث العلمية والصناعية ، ثم صار عضواً في لجنة الطاقة الذرية في اغسطس سنة ١٩٤٥

من أنها عززت بنظرية قريبة منها قال بها العلامة دكتور كنلي Dr. A. E. Kennelly . غير أن بحوث سير أدوارد في طبيعة الذرات والأيونات قد دلت بعد ذلك بزمن وجيز على أن هواء الأجواء العليا يمكن أن يكون موصلاً للأمواج الكهربية وليس عازلاً ، بسبب

وجود كل العوامل لتكوين المحيط الموصل هنالك — وتلك العوامل هي وجود الجزيئات الهوائية والاشعاعات الفوتينضحية القوية المنحدرة الينا من الشمس . والطاقة المنبعثة من هذه الاشعاعات قد تنصرف الى التأثير على جزيئات الهواء واطلاق إلكتروناتها وكهربائها ، وبذلك تحوّل طبيعة الهواء من عازل الى موصّل . وبهذا التعليل قبلت النظريات ، وسميت الطبقة المؤيّنة[1] باسم الذين تصوراها قبل اثباتها علميًا ، أي باسم كنلي وهفسيد [2]

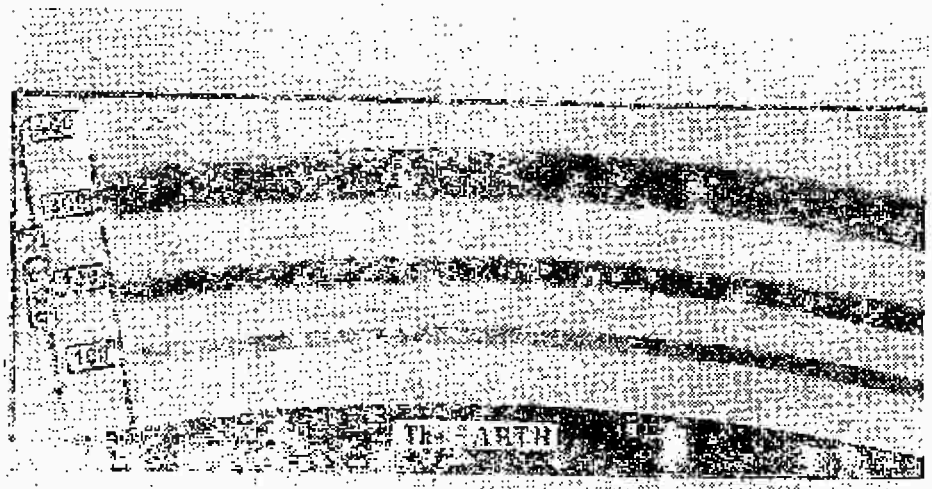

تمثل هذه الصورة المنطقة الأيونية وتسمى طبقة أپلتن وهي أهم الطبقات الجوية المؤثرة في ارسال الاشارات اللاسلكية البعيدة ، لأن الامواج القصيرة تمضي مخترقة طبقات الجو السفلى حتى تصطدم بالمنطقة الأيونية فترتد الى الأرض في النهار والليل على السواء على اختلاف في قوة الامواج ونقاً للوقت

غير أن الدليل العلميّ على وجود هذه الطبقة كان يعوز علماء الطبيعة ، ونيلُ الأمر عنى ذلك عدداً من السنين ، تجمّع خلالها من الأسباب والمعلومات ما جعل الوصول الى ذلك الدليل أمراً متوقعاً . فقد لوحظ مثلاً أن الاشارات اللاسلكية تضعف قوتها ، إذا أرسلت في أثناء الليل والى مسافة ١٠٠ ميل وان قوتها وضعفها يتغيران بتغير الوقت الذي ترسل

(١) من أيون : أين بزين : Ionise اشتقة من اليونان (٢) صيغة كنلي وهفسيد

فيه . فكان من الطبيعي أن ينصرف تفكير العلماء الى أن ذلك إنما يعود الى تدخل الأمواج التي تمر في جو الارض ، وتلك التي تنحدر الينا من السماء .

ولكن هذا لا يقوم دليلا علميًّا على وجودها . ان هذا هو استنتاج لا أكثر ، استنتاج لا يفسر طبيعة تلك الايونات المقول بها ولا يعرفنا مقياسها ولا كيفية توزعها في الطبقات العليا .

في سنة ١٩٢٤ برهن سير ادورد اپلتن Sir. E. Appleton عليها عمليًّا باستخدام موجات قصيرة جدًّا مثبتًا ان الطبقة العليا — وهي أعلا الطبقات الجوية — هي أم الطبقات المؤثرة في إرسال الاشارات اللاسلكية البعيدة ، إذ دلت التجارب على أن الموجات القصيرة تمضي مخترقة الطبقات الجوية السفلى حتى تصطدم بالطبقة الايونية فتصوب ثانية نحو الأرض وترتد اليها . وهنالك ثبت وجود الطبقة الايونية التي عُلل بها ما حيّر العلماء أول الأمر .

ومنذ سنة ١٩٢٥ مضى العلماء يختبرون هذه الطبقة ويهيئون دراستها العلمية للاحاطة بجميع مختلفاتها .

الحق الالهي — Divine Right

المذهب القائل بان الملك يتسلط على شعبه تسلط الاب على أولاده ، كما كان يفيه القدماء (jus in loco parentis) وانه يستمد هذه السلطة من الله مباشرة ، لا من ارادة الشعب . وهذا المذهب ، الذي بلغ أشده في عصر أسرة « استيوارت » في بريطانيا ، قد فقد الآن كل ما كان له من أثر في السياسة .

The divine right of kings, independent of the wishes of the people, has been one of the most enduring and influential of superstitions, and it has been now not wholly vanished from the world. Lecky's European Morals, p. 385, vol. ii

أرستوقراطية الجهل

لا هو إلى الطول ، ولا هو إلى القصر ؛ أسمر اللون ، صغير العينين ، كبير الأنف ، واسع الشدقين ، بارز الذقن ، نحيل الجسد .

وخَطَّ الشيب شعره فصار أشبه إلى زرقة ، أشبه بلون البحر علاه الزَّبَد .

أخلاقه مزيج من المتناقضات ، فلا هو رحيم ، ولا هو قاس ، ولا هو كريم ولا هو شحيح ، ولا هو فاضل ولا هو رَذل ، ولا هو دنيء ولا هو عَفٌّ .

هو تركيب آدمي تحتكم فيه أعصابه ، فيلبس في كل حال ثوباً ، ولكل ظرف من ظروف الدنيا الصورة التي تلائم أعصابه المهدودة ، خبط عشواء وبغير مقدّمات من الفكر أو التأمّل . وهو إذ تمازجت فيه هذه الصفات المتنافرة ، فإنه لم يخلص من الدنيا بصفة تفرّدت بغير نقيض غير واحدة : هي الجهل .

جاهل صريح النسب إلى الجهل ، وافر المعرفة بأساليب الجهلاء ، ثابت القدم في تفهم طرق الادعياء ، وكيف يخفون الجهل والدعوى بالعلم بمسالك من القول المتقاطع ، النائع ميوعة الرّمال الناعمة ، فيلذ لك حديثه ، حتى إذا تأملته لم تجده شيئاً .

غير أن هذا الإنسان في الجهلاء نسيج وحده . فليس في الدنيا معضلة من معضلات الأخلاق إلاّ ولها عنده حل ، أو مشكلة من مشاكل الفلسفة والاجتماع إلاّ وله فيها أفانين من القول . فهو في ذلك فنّان ، ولا نقصد بهذه الكلمة هنا معناها الحديث الذي جرى على أقلامنا في هذا الزمن ، بل نقصد بها معناها القديم الذي عرفه أبو الأسود ، والخليل بن احمد ، إذ دلت في معاجمنا على الجسّار ، له فنون من الجري .... ومن الشَّطَط بالضرورة .

هو مع النقاة في كل فرع من فروع المعرفة ثقةٍ منهم ، وثبت من أثباتهم . فهو اقتصادي

واجتماعي وفيلسوف ومشرع وسياسي وعالم بالأصول والفروع وفقيه لغوي وأديب واسع الاطلاع ، إلى آخر ما هنالك مما تعدُّ من فروع المعرفة الانسانية .

يمضي مدَّعيًا أنه قرأ وأنه اطَّلع وأنه جرَّب وأنه ابتكر في العلم وعاد من بناء الأدب . وهو فوق هذا لئيم ، يدعي هذه الدعوى مستكبراً مصعِّراً خدَّه للعلماء ، مُستَفِّهاً لما يقولون ، نامصاً لما يقرِّرون ، هادماً لما يبنون ، ضارباً في كل فنّ ومطلب ضرب القمّار . لكن بالمعنى القديم .

هو جاهل ، ولكنه جاهل ارستوقراطي ، يرسل بجهالاته زهوًا بها ، واثقاً من أن نساء ، لا يقوى لطمة على الوقوف أمام جبروته الكاذب . يقحم نفسه في محيط العلماء ، ويقذف بها في جرّ المجربين الثقات ، ويعاشر السياسيين ليقال هو سياسي ، ويعاشي الصحفيين ليقال هو صحفي ، ويوثق صلاته بكل من امتاز في شيء من العقليات ليحشر في زمرتهم . ولكن من ورائه ابتسامات عريضة لها معناها .

له من الكبرياء غرور الكبرياء . وله من العصافير أحلام العصافير . إذا مشى دَقَّ بقدميه ، وصعَّر خده للناس ، وحلق في الرائح والغادي ، وتقرَّس في الحادي والبادي . فإذا مرَّ بحسناء اختال وتايل ، وإذا مرَّ بمنتدى لقوم تكبَّر وتطاول . كأني به يحدس إن كل الحسناوات في أفلال جماله ، وكل الرجال في أصفاد جاهه وماله .

صلة الرحم عنده أوهى من خيط العنكبوت ، وأدق من الصراط : الذي هو أنحل من الشعرة ، وأحدُّ من السيف ، فكيف يجتاز ذلك الصراط إلى ذوي رَحِمِه ؟ فإن تحطاه فإلى غير ذوي الرَّحِم .

مسكين الذوق ، أفلاكُ العقل ، فقير الضمير ، ذليل الوجدان ، لا تقع عينه إلا على أفلاكٍ منه ، أو مملوك يغدق عليه من برِّه ، وينفق عليه من ماله تتصل به أرحامه ، وتمتد بها إليه بناه وبنشراه ، وكلتاهما عن ذوي رحمه مقطوعة مبتوتة .

كل هذا لشيء واحد : هو أن يشتري به ثمناً قليلاً ! مديح مَن مدحه ذمٌّ وهجاء ، ومَن هجاؤه أعظم المديح وأغنى الثناء

وعلم آدم الاسماء

تحت هذا العنوان قرأت في مقتطف يوليو سنة ١٩٤٥ الأخير رد الدكتور توفيق صايغ سليط على مقالي الدكتور احمد زكي بك في الهلال في اللغات التي تصلح أو لا تصلح أن تكون واسطة تفاهم بين الشعوب جميعها .

أنا لم يسعدني الحظ بالاطلاع على مقالي الدكتور زكي بك ولكن يفهم من الرد المشار إليه بأنه يفضل اللغة الانكليزية على غيرها رغم صعوبتها الشاقة وشذوذها — ولا أقول الكثير إذ ما هي إلاّ شذوذ بشذوذ — ويدعو الى المناداة بها لغة عالمية . وله لتأييد دعوته هذه ولا شك حجج وبراهين .

فيعارضه الدكتور سليط ويسعى جهده لحمله على مبايعة اللغة التركية معدداً مناقبها وحسناتها دون أن يعثر أو يشاء أن يعثر بسيئة لها أو عورة .

وقد يتقدم غداً الكثيرون — أو قد تقدموا — وكل يدلل باللغة التي يمتلك زمامها ويتعشقها ويدعو الى تتويجها ملكة على كل اللغات كما أتقدم أنا الآن — ولي المام بسيط ببعض اللغات — لأقول :

البحث شائق جليل ومقاصد الدكتورين سامية نبيلة لشدة احتياج العالم الى لغة عامة يتفاهم بها . ولكن رغم هذا الجلال وهذا النبل وهذه الحاجة الماسة فلا أمل باتفاق العالم على الأخذ بلغة طبعت بطابع أمة ما وجعلها عالمية ولو كانت هذه اللغة من الفصاحة والبلاغة والسهولة والضبط في الذروة . ولذلك أسباب قد يحسبها البعض سخيفة واهية ويعدها البعض الآخر قيمة معقولة . ومثل ذلك مثل الجملة المترية على ما بينها وبين اللغة من البون الشاسع .

ألا تروا كيف أن بعض الأمم تحجم وتترفع عن الأخذ بالجملة المترية هذه وهي على

ما هي عليه من الاتقان والابداع والسهولة ؟ ولماذا ؟ أترك الجواب لكل حسب استنتاجه وأسأل :

أفي الأخذ بها شر أو عار وهي تفوق غيرها من نوعها ؟ .

أمن خوف على الآخذين بها من التخلق بأخلاق موجديها ولا سيما فلسفية تصبغها أو رائحة نظرية اجتماعية تنبعث منها ؟ إذ ما هي إلاّ أدوات جامدة باردة مبنية على حقائق علمية رياضية مشاع للجميع .

أما اللغة فهي خلاف ذلك إذ هي صورة الأمة التي تكلمها وروحها الخفيف الظل أو ثقيله لأنها جبلة من أخلاقها ونسيج من شعورها وتحسسها . وهي مقياس رقيها وانحطاطها ومظهر من مظاهر سلطتها وسطوتها .

أيمكننا والحالة هذه أن نأمل إتفاق العالم على اتخاذ لغة أمة ما وجعلها عالمية ؟ .

أليس بذلك اعتراف صارخ بأنها أرق وأفضل وأسهل وأوفى و . . . و . . . من غيرها ؟

أليس بذلك الشيء الكثير من النفع والفضل للأمة التي تحسن على العالم بلغتها ؟

أليس بذلك جعل هذه الأمة مطمح الأنظار ومغويها المرجع الأعلى — ولو الى أمد قصير — عند الاشكال فيما يتعلق بهذه اللغة ؟

أليس بذلك شيء من التخلق بأخلاق هذه الامة ولو كان أثره ضئيلاً ؟ .

***

قد يعترض أحدهم بأن ما هذا إلاّ وهم وغلوّ ويندد بالمكابرة والتعنت ويدعو الى نبذها وإلى الاقرار بالافضل ولو كان لعدوّنا . ويجهد نفسه كي يبرهن أن لا حاجة لنا بالاخذ بروح اللغة وآدابها بل بها كل كلماتها الباردة . وكل أمة تنفخ فيها من روحها فتنعشها وتحييها دون أن تغير من معانيها .

انها لنظرة قد يراها بعض الناس جميلة فيقرها ويراها البعض الآخر قبيحة فينبذها . وللناس في الناس نظرات ومظنون .

فالأقرب الى الصواب إذن والأسهل مثالاً هو الأخذ بالاسبرنتو لأنها لم توسم بطابع وطني ما ولم تتخلق بأخلاق إحدى الأمم ولأنها سهلة لا شذوذ فيها ولا تعقد فيتباعا العالم

ويعطف عليها ويتقدم لها اللغويون غذاءها من خير ما تفيض به أدمغتهم فتنمو وتزدهر وتغمر العالم بظلها الوارف .

وقد اعترض عليها الدكتور سليط في رده الذي أشرنا اليه بأنها قاصرة عن القيام بالغاية المنفردة ويحتاج صقلها الى مئات السنين . فأجيبه بأن قصورها هذا لهو من خير مؤهلاتها لتكون اللغة المطلوبة اذ تبتلع بشره وتهضم بسهولة كل ما يقدم اليها من الكلمات المنتقاة بنزاهة وعفة .

ولا يحتاج الى الوقت الطويل — كما يتوهم البعض — في تجهيز هذه اللغة واعدادها لتكون كافية وافية بالغرض المطلوب اذا ما صفت نيات الدول وقامت قومة واحدة الى انشاء مؤسسة عامة يرسل اليها من جميع أنحاء العالم بأوسع اللغويين اطلاعاً وأقومهم أخلاقاً وأسمهم مقاصداً وأكثرهم حبّاً للسلام والتعاون . وليكن لدول المحور نصيبها في هذا العمل الخطير ليكون النفع أعم ، والغاية أسمى ، لا تصورها هائبة حقد ، أو عداوة . لا أن يقوم بذلك بضعة من الرجال تعد على أصابع اليد الواحدة كما يفعلون أحياناً بمقدرات العالم .

وفي عملهم هذا من الغبن والاجحاف ما لا يعمى عنه ذو بصيرة وإن تعامت عنه — لأمر ما — دول الأرض قاطبة . ويجب الحذر من السياسيين والدبلوماسيين والحيلولة بينهم وبين هذه المؤسسة اذا ما كان يرغب حقّاً في نجاحها .

وعلى هذه المؤسسة أن تختار أفضل الكلمات وأنسبها دون ما نظر الى وطن أو اقليم أو دولة تعضد هذه الكلمة أو تقاوم تلك .

***

واللغة مهما كان لها من فوائد وحسنات فهي غير كفيلة وحدها بمنع الحروب . والحروب كثيرة بين دول تتكلم لغة واحدة . إذن يجب على هذه المؤسسة أن يكون لها هدف ثان أسمى من اعداد لغة عالمية ألا وهو توحيد التعليم والثقافة بكتب واحدة وبلغة واحدة في جميع أنحاء المعمور لانشاء عقلية سليمة وان لم تكن واحدة لتعذر ذلك فعلى الأقل لتكون متشابهة متقاربة . واذا تشابهت العقليات السليمة تشابه التفكير السليم وظهر ضرورة التعاون وبدا

الحكام وروّضت العقول على الأخلاق القويمة فيسهل من دستور اقتصادي عالمي كفيل برفع مستوى المعيشة فالرفاهية فالسلام الحقيقي لا السلام المسلح القائم على رءوس الحراب وأفواه المدافع، السلام المزيف الذي يقسم الانسانية فئتين فئة قاهرة وفئة مقهورة مكبلة. وبين الفئتين هوة عميقة من الحقد والبغضاء، والويل للانسانية، عندما تتفجر مراجل الحقد والبغضاء.

ويجب أن نمنع منعاً باتّاً تدريس تواريخ الحروب وفنونها على حالتها الحاضرة والاكتفاء باظهارها بمظهرها الحقيقي الوحشي على الاجيال المقبلة ترى على كره الحروب والابتعاد عنها وتسمو عن البؤرة التي تتكمكم فيها الانسانية اليوم، بؤرة الخداع والمراوغة وانتهاكها حرمات الشعوب الآمنة، والتستر وراء براقع صفيقة من العقود والمواثيق، يقيد الضعيف بها، والقوي في حلٍّ منها، اذا لم يكن له في تنفيذها منافع ومآرب.

ويجب على جميع الدول أن تتقيد بصدق واخلاص بهذه التعاليم السامية والثقافة الموحدة وبالامتناع عن التعليم بلغاتها الخاصة فيما يتعارض مع ذلك.

وبينا ينتظر العالم بفارغ صبر من حكمائه ومصلحيه الاتفاق على الوصول الى هذه الغاية المنشودة أستحث قادة الرأي في البلدان العربية والمستعربة على انشاء مؤسسة تأخذ على عاتقها، بالاتفاق مع وزارات معارفنا واقتصادنا توحيد الثقافة والاقتصاديات في شرقنا المتنابذ، فنسير قدماً الى التعاون الحقيقي، فالاتحاد الاقتصادي والسياسي ونصير في بوتقة واحدة، فنؤلف كتلة واحدة صلبة، تتحطم عليها أنياب تعمل الآن في دمنا وعروقنا.

***

وعندما يتملص العالم — وهو صائر الى ذلك — من نير الدول المستعمرة وجشع أرباب معامل السلاح والدمار والرأسمالية المجرمة، يهون عليه القيام بهذا المشروع الجبار، مشروع اقرار لغة عالمية واحدة، وثقافة سليمة واحدة، ويكون لنا كلمة قوية واحدة، يدٌ طولى في ذلك، ورأي مسموع، وسعي مشكور والسلام

فيتوريانا — برازيل ميرميل صرايا

تراجم مشاهير
علماء الطبيعة والنبات

دو فريس Vries, Hugo de : ولد بهارلم في ١٦ فبراير ١٨٤٨ وكان أستاذ النبات بجامعة أمستردام . أسس نظرية التحوُّل الفجائي على ملاحظاته لزهرة الربيع المنوبة للامارك . واستكشف مظاهر المولدات (الهُجُن) في عالم النبات وأحيا قوانين مندل الوراثية . ومؤلفاته هي « نظرية التحوُّل الفجائي » (١٩٠١ — ٣) و « الأنواع والأصناف » (١٩٠٦) وتربية النباتات » (١٩٠٨) .

ستراسبرجر (Strasburger, Eduard) ولد بفارسوفيا في ١ فبراير ١٨٤٤ ومات في بُن في ١٩ مايو ١٩١٢ حيث كان أستاذ النبات بجامعتها . وهو عالم بتركيب النسج شهير وسَّع علم البنية الدقيقة للخلايا ، وأوضح عمليات الاخصاب في النباتات . ومؤلفاته هي « الصنوبريات والجنينيات » (١٨٧٢) و « الوعائية البزر والعريانة البزر » (١٨٧٩) و « تكوُّن الخلية وانقسامها » (١٨٨٠) و « عملية الاخصاب في ذوات الأزهار » (١٨٨٤) و « الكتاب العملي الصغير في علم النبات » Praktikum (١٩٠٢) و « كتاب علم النبات بمشاركة نول وشمبر وكارستن » (١٩٠٤)

فيفر Pfeffer, Wilhelm : ولد بجريبلشتين (هيسين) في ٩ مارس ١٨٤٥ وكان أستاذ النبات بليبزيج وهو فيزيولوجي نباتي شهير كتب في الأخصاب والتَّناضُح والنَّبْت وقبول الاثارة وحركات النباتات . ومؤلفاته هي : « الفيزيولوجيا النباتية » (١٨٨١) و « أبحاث المعهد النباتي في توبنجن » (١٨٨١ — ٨٨) .

كرايك (Kraick, Friedr) أستاذ علم النبات في براج وأشهر مؤلف له « الكيمياء الحيوية للنباتات » (١٩٠٥) .

كلكر (Kölliker, Rudolf Albert) ولد بزيوريخ (سويسرة) في ٦ يولية ١٨١٧ وهو

عالم سويسري شهير في التشريح والفيزيولوجية وعلى الأخص في علم النسج (الهستولوجية) كان أستاذ الفيزيولوجية في زيوريخ ١٨٤٥ وفي فرزبورج ١٨٤٧ ومن مؤلفاته : « التشريح المجهري » (١٨٥٠ — ٥٤)

ماير (Meyer, Arthur) : ولد في ٣ مارس ١٨٥٠ وكان أستاذ علم النبات في ماربورج وأشهر مؤلفاته « كتاب التحليل النوعي » (١٨٨٤) و « الاستعمال المكرسوبي» (١٩٠١)

مَجْنُسوس (Magnus Wernet) : ولد في ٢٢ ديسمبر ١٨٧٦ وكان أستاذ علم النبات بمدرسة الزراعة العليا في برلين وألف كتاب «الفيزيولوجيا النباتية » (١٩٠٠) .

(هَنْزن Hansen, Adolf) ولد بألتونا في ١٠ مايو ١٨٥١ وكان أستاذ النبات بجامعة جِيْسِن ومؤلفاته هي « الفيزيولوجيا النباتية » (١٨٩٠) و « علم الأقرباذين » (١٨٩٧) و« نبات جوائز فريزلند الشرقية» (١٩٠١) و «مذهب جُوته في تطور النباتات» (١٩٠٧) و « تنقيح علم تمييز العقاقير » (١٩٠٩) و « تنقيح علم النباتات » (١٩١٠)

محمود مصطفى الرمباطي

التوازن الدولي — Balance of Power

في القانون الدولي :

نوع أسباب القوة والدفع في الأمم التي يتكون منها نظام سياسي ، بحيث لا تصبح أمة ، سواء أكانت قائمة بنفسها أم منضمة الى غيرها ، في مركز يمكنها من أن تفرض ارادتها على غيرها من الأمم ، أو تعتدي على استقلالها .

أما الخطة التي اتبعتها دول أوربا لتحقيق هذا الغرض فكانت مقاومة كل نظام سياسي ، يرمي الى استغلال قوة احدى الدول أو اضعاف أخرى الى حد يهدد السلام العام ، فرضت الدول في بدئها جهوداً لا تسيح لإحداها أن تعمل ما من شأنه أن يزيد قوتها ، تهدد بذلك استقلال جيرانها ، أو تتغلب على كبرى القوى .

مكتبة المقتطف

المقامر

من وضع فيودور دستويفسكي وترجمة شكري محمد عياد

سكين دستويفسكي ، عانى في حياته الصرع والحكم عليه بالقتل وقاسى العذاب في ليمانات سيبيريا وأبهظته خيانة الزوجة له والخسارة في الميسر والزوج تحت الديون ، واحتمل ذلك كله في جلد وصبر ، ولكن القدر دهاه بعد مماته برزء لا قبل له ولا لنا باحتماله ذلك هو التشويه الفظيع الذي أصاب بعض آثاره في دار « الكاتب المصري »

يطالع المرء على غلاف هذه القصة أنها (تعريب شكري محمد عياد) والتعريب فيما نعلم هو النقوه بالاسم الاعجمي على منهاج العرب وتصييره عربيًا فكلمة « ديمقراطية » مثلاً معربة عن الاغريقية ، أما المؤلفات الأجنبية فتترجم الى العربية . ولعل المترجم إنما عدل عن كلمة الترجمة ليكون أمينًا في وصف عمله الذي لم يتوخَّ فيه الأمانة .

أخذت أقرأ هذه القصة فأخذ يتولاني الضجر وظلت أضيق بها ذرعًا كلما مضيت في القراءة ، فما أكملت قراءة الفصل السادس حتى كنت قد خرجت عن الطوق والاحتمال فطويتها ، وبدا لي أني كنت غرًّا ساذجًا إذ قرأت هذه القصة من قديم بالألمانية فقرّ في نفسي الإعجاب بها موضوعًا وأسلوبًا . أجل ، كنت أعلم أنها ليست في مصاف « الجريمة والعقاب » و « الأبله » و « الاخوة كارامازوف » وغيرها من آثار دستويفسكي الخالدة ، ولكني كنت أعلم أيضًا أنها لم تبلغ الغاية في التفاهة والغثاثة ، وأنها لا تحوي مثل هذه الجمل الركيكة التي طالعنا بها المعرب الاسكندراني ، فرجعت الى الترجمة الانجليزية بقلم السيدة

كونستانس جارنت (وقد أغفل المعرب اسمها فأن غيره من أدباء الكاتب المصري) فوجدتها تقع في نحو ٦٥ ألف كلمة على حين لا تتجاوز معرّبة الأستاذ ٤٥ ألفاً ، وإذن فقد رمى حضرته الى الأرض بثلث القصة ولكنه ، ويا للأسف ، رمى بالثلث الأحسن ولم يحتفظ من السمكة إلاّ برأسها وذيلها وهما لا غناء فيهما .

يقبس القارىء من الترجمة الدقيقة الأمينة القوية الأسلوب صوراً فنية وأخيلة رفيعة واستعارات لذّة وتشبيهات جميلة ، وبهذا الضرب من الترجمة ، الترجمة كما يفهمها الأوربيون ، تمتلىء العربية حياة وفتوة وتزداد ثروة على ثروة . أما هذا « التعريب » الذي يجمع الى سوء فهم المعرّب وقلة أمانته ركاكة العبارة وشيوع الخطأ اللغوي ، فنحن نسائل حضرته ماهو الغرض منه ؟ لئن كان الغرض إطلاعنا على هيكل القصة لقد قامت بذلك من قبل « روايات المجيب » إذ أصدرت قصة « المقاص » هذه مطبوعة على مثل هذا الورق الرخيص وعلى هذه الحروف الصغيرة وفي مثل هذا الأسلوب المهلهل فجاء الكتابان على غرار واحد لا فرق بينهما إلاّ أن الأول ثمنه قرشان والأخير ثمنه ثمانية عشر قرشاً

فأما الأخطاء اللغوية فنذكر بعض ما ورد منها في الصفحات الأولى وذلك على سبيل التمثيل لا الاستقصاء .

جاء في ص ١ نظر إليّ باستعلاء والصواب متعالياً أو في شمخية

١٦ يمن النظر	«	ينعم
١٨ تسمع احتجاجي	«	تأذن الى استنكاري
٢٥ الصدف	«	المصادفات
٣٩ رغم أنها	«	مع أنها
٤٤ راق لي	«	راقني
٤٦ اعتبرت نفسك مسئولاً	«	عددت نفسك

وأما الابتعاد عن ترخي الأمانة في النقل والتهرب من كل ما هو عسير في الترجمة وكل ما هو جميل في القصة فنضرب له مثلاً الأسطر التي اختتم بها الفصل الرابع ، وفيها يسدد المؤلف على لسان أحد رجال القصة من يدّخر المال ويرى انه خيرٌ للمرء أن يستمتع هو

نفسه بأمواله . ونحن ننقل هنا كلامه عن الترجمة الالمانية نقلاً أميناً قال :

« إنما أحب أن أثري من أجل نفسي . يجب أن يكون مالي لي لا أن أكون انا له ، ولست أطيق مطلقاً أن أنظر الى نفسي على أنني تَبِع للمال وشيء ثانوي الى جانبه ... إنني أعلم أني ألغو بمراء من القول وأني أخبط في الغلو ، لكن ذلك ولكني مقيم على رأيي .

فقال الجنرال وهو يفكر مليًّا : لست أدري أفيما تقول حظ كبير من الصواب ولكني أعلم علم اليقين أنك تنزع الى الغلوّ والشطط حيثما يسمح لك بعض الشيء أن تنسى نفسك . . . »

وما عتّم جنرالنا أن اقتضب حديثه على مألوف أمره ، فقد كان إذا أراد أن يقول شيئاً له بعض الخطر ، شيئاً يسمو قليلاً عن الأحاديث اليومية الدارجة تولته حُبسة فلم يتهه الى الابانة عن آرائه » .

والترجمة للانجليزية لا تختلف عن الألمانية في كثير ، فانظر الى تعريب الأستاذ الفاضل لها ، قال :

« إني أريد النقود . إني أرى نفسي خيراً من رأس المال . . . قد أكون مخطئاً على كل حال ، لكن هذه هي معتقداتي .

فقال الجنرال مفكراً :

لست أدري حظك من الصواب أو الخطأ ، ولكن الذي أدريه أنك أصبحت مهرجاً كبيراً على قلة ما تسمح لك بنسيان . . .

ولم يتم كعادته » .

وهكذا عدا المعرب على عبارات المؤلف بالمسخ والتشويه والتفظيع وأسف بالقصة كلها فجاءنا برقعة سهلة لا تحكي الأصل في شيء ، ولم يقدم للقرّاء ما أعده لهم كاتب القصة من غذاء فكريّ بل قدّم لهم فيئاً وغسلينا .

ألا إن الذي يشتري قصة المقامر هذه لهو المقامر حقًّا ، وإنه لمقامر خاسر .

عصام الدين مفتي ناصف

الشعر والشعراء

لابن قتيبة (٢١٣ — ٢٧٦ هـ) حققه وشرحه حضرة الاستاذ احمد محمد شاكر . صدر منه الجزء الاول في ٥٣٠ صفحة من القطع الكبير عن دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه : ١٣٦١ هـ ١٩٤٢ م

كنت وما زلت من الداعين الى احياء الآداب القديمة ، ذلك بأني أعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك ولا يرقى اليه الريبة في أن الأدب الحديث اذا لم يستند الى أصول مأثورة فهو أدب مرقع لا انسجام فيه ولا أساس له . فوضع كتاب من المأثورات القديمة كالشعر والشعراء لابن قتيبة في يد طالبي الأدب والمتأدبين مما ينعمنا غبطة ويزيدنا رضى عن حركة الأدب في مصر خاصة والشرق عامة . وابن قتيبة من أدباء القرن الثالث الهجري ومن كبار النقاد ومن أهل عصر الفصاحة العربية . ولقد صوَّر في كتابه هذا فئة كبيرة من شعراء الجاهلية والاسلام ورسم لهم صوراً صحيحة بما اختار من أشعارهم وما انتقى من أحداث حياتهم في بعض المواضع . وعندي أن أنجب ما في هذا الكتاب حسن اختيار القطع الشعرية ، فانها اختيرت بلباقة وفن ، قد يرقى الى أقصى ما تصل اليه رفاهة الحس التي قد يرقى اليها مترجم عن حياة شعراء ، إذ يكفي أن تقرأ ما انتقى لهم لكي ترسم صورة من ذلك الشاعر تغنيك عن تلك الاستطرادات الطويلة التي يلجأ اليها الكتاب في هذا العصر ، واذا بها فارغة جوفاء. خذ مثلاً قطعة مختارة للمنقب العبدي :

أفاطمُ قبل بينك متّعيني ومنعُك ما سألتك أن تبيني
ولا تعدي مواعيد كاذباتٍ تمرُّ بها رياح الصيف دوني
فإني لو تعانقني شمالي عناقَك وما وصلتُ بها يميني
إذاً لقطعتها ولقلت بيني كذلك أجتوي من يجتويني
فإما أن تكون أخي بحقٍّ فأعرف منك غثي من سميني
وإلاّ فاطّرحني واتخذني عدوًّا أتقيك وتتقيني
فما أدري إذا يممت (١) أرضاً أريد الخير أيُّهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

(١) يممت في الاصل ميمم الاولى عليها فتحة وهذا من الهنات المطبعية الدالة في الكتاب على ترجمة من العامية (مظر ١) لا مذاق (بالنون) وصحته لا مذاق (بالتاء) وهذه هنات لا تكاد تذكر الى جانب ما نجد في هذه الطبعة من جهد عظيم يظهر واضحاً في جميع صفحاتها .

ومن الصور التي اختارها ابن قتيبة قطعة للبيد يرثي أخاه أربد : أولها ، بَلينا وما تبلى النجوم الطوالع : منها :

وما الناس إلاّ كالديار فعامل ... يَحبُّ ما يبني ، وآخر رافعُ
فمنهم سعيدٌ آخذٌ بنصيبه ... ومنهم شقيٌّ بالمعيشة قانع
أليس ورائي ، إن تراخت منيتي ، ... لزوم العصا تحنى عليها الأصابع[1]
أخبّر أخبار القرون التي مضت ... أدبّ كأني كلما قمت راكع
فأصبحت مثل السيف أخلق جفنه ... تقادُم عهد القين والنصل قاطع
فلا تبعدَنْ ، إن المنيةَ موعدٌ ... علينا ، فَدَانٍ للطلوع وطالع
أعاذِلَ ما يدريك ، إلاّ تظنيًّا ... إذا رحل الشُّفّار من هو راجع
أتجزعُ مما أحدث الدهر للفتى ... وأي كريم لم تصبه القوارع
لعمرُك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

هذا شيء من قوة هذا الكتاب ونزر مما أفرغ فيه مؤلفه من قوة الفن . أمّا محققه فقد أفرغ فيه جهد الصابرين مراجعة وبحثاً وتعليقاً ، وهمّشه بأرقام الصفحات التي تقابل الطبعة الأوربية طلباً لفائدة الباحثين ، وتيسيراً لبحوثهم ، فله أجر ما كسب شكراناً من يعرفون قيمة ذلك الأدب . كتب الله للأدب العافية من فئة في هذا الزمان قلّت فيهم كفاية الأدب ، ونحن ولله الحمد من الصابرين .

أنيسة أو رواية اخوان العدل

١٥٢ صفحة — مطبعة الرهبانية الحلبية في صيدا — لبنان

هي رواية اقتبسها الأب العلامة جبرائيل أبو سعدى عن الفرنسية وتصرّف فيها تصرفاً يقتضيه سير حوادثها فبدّل وغيّر فيها أموراً منها بعض المشاهد التي رأى حذفها لأنها تعطل مجرى الكلام وزاد فيها غيرها يربط المعاني والحوادث ويبرز المغزى الأدبي بثوبه الكامل الفضفاض .

والرواية ترمي الى غاية نبيلة وتهدف الى تقوية الخلق العالي والشهامة والشرف في نفوس الفتيات حيث تظهر بطلتها وقد غرت قلب زعيم عصابة فأحبها ولكنها لم تذعن لصرخات الهوى التي يصاولها الا بعد أن توصلت الى قلب حياة محبوبها فجعلت منه عصواً نافعاً في المجتمع بعد أن كان أفاقاً عاتياً . والرواية مكتوبة بأسلوب أدبي رفيع فتحث القراء على مطالعتها .

(١) انظر هنا جمال الصورة وقوة التصوير .

فهرس الجزء الخامس

من المجلد الثامن بعد المائة

٢٧٣ آراء حديثة في نشوء الحضارات : اسماعيل مظهر
٢٧٩ نظام الامومة
٢٨٠ الحرم الكنسي
٢٨١ الصيلة عند قدماء المصريين : الدكتور حسن كمال
٢٨٩ ال الشعراء (قصيدتان) : هكسبير ونعمة قازان
٢٩٠ السيكومتري : احمد فهمي ابو الخير
٣٠٠ الدومنيكيون
٣٠١ أيستطاع تسيير السيارات والطائرات بالطاقة الذرية : عوض جندي
٣٠٧ امتكشاف المنطقة الايونية
٣١٠ الحق الابلي
٣١١ ديمقراطية الجمل
٣١٣ وعلم آدم الاسماء : جبرائيل صوايا
٣١٧ تراجم مشاهير علماء النبات : محمود مصطفى الدمياطي بك
٣١٨ التوازن الدولي
٣١٩ مكتبة المقتطف * المقامر : نقد بقلم عصام الدين حفني ناصف . الشعر والشعراء . أنيسة او رواية اخوان العدل

ملحق

١—٤٧ سبنوزا : حياته وفلسفته — بحث وتحليل : تأليف هنري سرويا — ترجمة سليم سعده .

JANUARY — MAY 1946 يناير — مايو سنة ١٩٤٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر

أنشئت سنة ١٨٧٦

المجلد الثامن بعد المائة

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : Ismail Mazhar

VOL. 108

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهذا الحب الروحاني الذي يفرض وجود فضيلة أخلاقية فذة، يحمل نوعاً من الشبه والتناسب مع أفكار المسيح. فكلاهما — المسيح وسبينوزا — قد نهلا من مورد واحد، وكلاهما من سلالة مشتركة «تلك السلالة العظيمة التي تحتل مكانة خاصة في تاريخ المدنية بفضل الخدمات التي أدتها».

كلاهما يراسيان النفس البائسة المكروبة، وتعاليمهما في متناول جميع المكروبين المحزونين في هذا العالم. فالناحية الروحانية من عبارة المسيح: «إن مملكتي ليست من هذا العالم» لا تختلف في الواقع عن حب الله العميق الذي يقول به سبينوزا. إن المسيح وسبينوزا كانا بطلين في قدس الأقداس. وزاهتهما وميلهما الى البؤساء المتواضعين دليل على تشبعهما لمذهب مثالي غير مألوف. ولكن اذا كانت الطرافة القائلة بألوهية المسيح تثير طائفة من النقد في أيامنا، فان سبينوزا أدنى الى مداركنا وأقرب الى عقولنا منها، فكتاباته ونبل أفكاره وتفكيره إن كانت مما يصعب فهمها أحياناً، إلاّ أنها تجعلنا نلمس بأصبعنا حياة الزهد التي كان عليها فيلسوف لاهاي. ثم إذا نحن فرضنا عدم وجود المسيح فان ذلك لا يمنع من وجود الحكيم «هيليل» للمقارنة بينه وبين سبينوزا.

إن الحماس الذي يتجلى في أيام الفلسفة سبينوزا يدل على أن مذهبه قائم على وجود خلود أبدي، أو بعبارة أوضح، وعلى حد تعبير سبينوزا، إن لهذا المذهب مسحة الأبدية. ولقد طالما قرّر رينان بأن سبينوزا كان «أعظم الاسرائيليين العصريين» وان هذا العبقري كان «نبي عهده» «وأنه أعظم من تعمق في النظر الى الله». وقد كتب جول لاتيو — بعد شيلرماخر وجيته وهجل وشلينج واسنج وجاكوبي الذين ينادون جميعاً بصوت واحد بأن سبينوزا هو رب الفكرة الحديثة — بأن مذهب ما بعد الطبيعة الاسبينوزي هو أقرب المذاهب الى العقل وأدقها علماً وأوضحها بياناً وأكثرها غزارة ودسماً».

ولنجتهد الآن في أن ندرس عن كثب مختلف أدوار حياة سبينوزا وتطورات فكرته الناقدة القوية.

٢ – حياته المهنية

إنه لمن الصعب إيراد بيان دقيق عن حياة سبينوزا لجميع المصادر مستقاة إما من كولروس المترجم عن حياته وإما من شهادة أبناء الطائفة اليهودية بامستردام ، أو على وجه التخصيص من رسائله . إن حياة هذا الحكيم غريبة للغاية لما يتخللها من مواقف البطولة والنبل والورع والحب التي يسهل تمييزها في جميع كتاباته الفلسفية . ان عمله رسم لنا صورة طبيعية عسوسة لحكمته الحقيقية ، أو لم يخلع على عمله الخالد اسم «الأخلاق» الذي من طبيعته تهدئة خواطر الضالين ومن يتتابهم القلق والوسواس إذا هم لم يفهموا الامور على حقيقتها ؟ وهو وإن كان عالماً فذاً بما بعد الطبيعة إلاّ أنه كان لا يزدري كل ما يتعلق بالانسانية . ان علمه بما بعد الطبيعة وان كان في تركيبه معقداً ، إلاّ انه يرمي إلى الشرح والتفسير بطريقة خاصة ، ولا يقتصر في ذلك الكلام على نظام الكون بل يتعداه إلى الحديث عن الحياة ، تلك الحياة البسيطة التي تمر كل يوم ، وهذا ما يجعل المذهب الإسبينوزي يلمس الحقيقة ويعبر عنها بطريقة عسوسة .

ولنرجع في بحثنا إلى سني دراسة سبينوزا كما تنم عنها الذكرى التي خلفها في معبد امستردام القديم « اورشليم الجديدة » وفي مدرسة ثان دِنْ إنّد بقدر ما نستطيع أن نتخيلها من وصف كولروس ولوكاس . إن صوره تحمل إلى نفوسنا تأثير فتى هزيل ذي عينين سوداوين تنبعث منهما نظرات حادة نافذة ، وتبدو عن حياة داخلية قاسية صارمة وحالة نفسية قلقة مزعجة إلى التأمل .

« كان سبينوزا – على حد تعبير كولروس ووصفه – متوسط القامة وسيم الوجه لحاسي البشرة جعد الشعر قانه ذا حاجبين كثيفين سوداوين . فكان يكفي النظر إليه للحكم بأنه من سلالة اليهود البورتغاليين . وكان قليل العناية بهندامه فما كان يرتديه يتساوى ولباس أبسط مواطنيه . وقد زاره يوماً أحد كبار مستشاري الدولة فألفاه وقد اتشح

لواحق المقتطف الشهرية
مايو ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته
عرضه وتحليل

تأليف
هنري سيروبا

ترجمة
سليم سعده

« كل شيء في هذا المكان يدعو منه »
« عرف الامن وتكهة النظام والسرور »
« جيته »

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

طبع بمطبعة المقتطف بمصر
١٩٤٦

١ – عبقريته

لا شك في أن الانسانية فقيرة بجبارة العقول ، والطبيعة شحيحة بالعباقرة الأفذاذ ، ولذلك فاننا نراهم يجتازون العالم في مختلف عصوره اجتياز الظواهر الغريبة النادرة . انهم يحلمون وهم في الغالب منبوذون لا يُفهمون .

وسبينوزا هو أحد هؤلاء الرجال الذين قلما يجود الدهر بمثلهم ، فتوصهم الأبية النبيلة تنأى بهم عن طائفة المتذلين الذين يبذرون الشر حولهم بدافع من نفوسهم وهم لا يعقلون . بيد أن الزمن — وهو الحكم النزيه العادل — كفيل بأن ينتقم لهم ويعقد عليهم لواء مجده فيظهرون .

تلك كانت حال سبينوزا الذي أبت حكمة بني جنسه أن تنهه فأهملوه ، وعزّ على فطنة ذوبه وآل عشيرته أن تعني به فأقصَوْه عنهم ونبذوه .

لن سبينوزا — بصفة خاصة — رائد حيته . فهل كان هذا الرجل عبقريًّا ، وهل كانت عبقريته فذة ؟ . . . إن « كانت » في كتابه « نقد الحكم » لا ينسب العبقرية إلاّ للشعراء والفنانين . ولكن يلوح أن تعبيره هذا لا يقوم على أساس متين . فكل « خَلْق » ذاتي ، أيًّا كان المجال الذي يتجلى فيه ، مرتبط — في الواقع — بالعبقرية . واننا لا نقصد بكلمة « خَلْق » ما يشمل الوجود الذاتي والرؤيا العميقة والحدس والنظريات الجديدة التي لا يمكن — فيما بعد — تطبيقها على الحقيقة . يقيناً أن العبقرية لا تستوي عند من يقصر عمله وتاجه على تنظيم الوقائع بطريقة واضحة منطقية ، والتعليق عليها بحكمة وهدوء دون أن ينفث فيها قليلاً من روحه أو يضيف اليها ملاحظة شخصية من نوع جديد ، ويقذف بها في اتجاه جديد أو يبذل في سبيلها مجهوداً شخصيًّا كبيراً . فمثل تلك الجهود تتطلب شيئاً من الثقافة العالية وحس الاستعداد . ويظهر أن « كانت » محق في نظريته من تلك الناحية . بيد أن الفيلسوف الذي يخلق يمتاز على الشعراء والفنانين ، إذ أن مخيلته أبعد مدى من خيالهم ،

وتلك المخيلة لا تقتصر فقط على حصر خطوط الحياة سواء أكانت تلك الخطوط واضحة أم غامضة ، وإنما ترمي أيضاً الى إدراك أعمق أعماق جوهرها . إن مخيلة من يقف جهوده على البحث والتنقيب في هذا الكل أو هذا الكون بطريقة دقيقة عميقة لهي ، بغير شك أو مغالاة ، مخيلة عجيبة . ولقد أورد التلمود ذكر شيء من هذا القبيل . فقد حُكي أن أربعة من الحكماء دخلوا « الحديقة » ليتبحروا في أسرار الخليقة فقد أحدهم بصره وأضاع الثاني رشده وفقد ذاكرته ، ومات الثالث ، ولم ينجح منهم إلاّ الرابع وهو « عقيبا » الرباني لأنه كان أديباً على جانب عظيم من أصالة الرأي وحصافة الفكر . إن الفيلسوف الذي يضم في مخيلته حيزاً في مثل اتساع الكون ، لهو بغير ما ريب عبقري . على انني أرى أنه لا يمكن إدماج عظماء الفنانين وفطاحل الشعراء ضمن فئة العباقرة إلاّ إذا كانت صدورهم مليئة بما يؤهلهم لذلك ، ولا أظنني مخطئاً إذا قلت بأن المؤلفات الخالدة التي خلفها شكسبير وراسين ولدت وميشيل انج وسرفانتس وبيتهوفن وجيته تنكشف عن فلسفة مؤثرة عميقة .

ان سبنوزا عبقري ، ليس بصفته فنّاناً ، ولكن باعتباره عالماً بما بعد الطبيعة . إن فيه شاعرية عميقة وحياة داخلية قوية . وتلك الشاعرية وهذه الحياة الداخلية تذكراننا بشخصية قلقة مضطربة كشخصية « هملت » ولكنها تبدو مرحة باسمة مرتاحة وهكذا تعلو شخصية سبينوزا على شخصيته ، لا سيما الجزء الخامس من كتاب « الأخلاق » وهو الجزء الصوفي البحت . وأكثر من ذلك فان المرء ليشعر — إذ يتعمق في دراسة حياة سبينوزا الروحانية الخاصة — بأنه يعيش في عالم من الصفاء لا مدى له ولا نهاية . إن مذهبه فيما بعد الطبيعة ، لا يقتصر على إرضاء الفضول البشري وجلاء أسرار الكون وتهدئة القلق الذي شعر بمثله عبقري مثل « پسكال » حيال عظمة الكون السامية وحقارة الذرات الضئيلة كنحن ، وإنما يتعدى ذلك كله إلى تطهير النفس وإسعادها في هذا العالم . « وليست الغبطة ثمناً للفضيلة ، ولكنها الفضيلة بعينها » .

إن الحب الروحاني الذي أوضحه سبينوزا بأجلى بيان لهو أسمى درجة لكل ما هو طيب انساني . ولقد أدرك تلك الدرجة جميع أولئك الذين وقفوا حياتهم على دراسة الأمور الروحانية البحتة ، بعد تجريدها من جميع العوامل المادية .

فهرس المجلد الثامن بعد المائة

من المقتطف

(ا) وجه

آجنس (قصة) ٢١١

آراء حديثة في نشوء الحضارات ٢٧٣

الأديان البدائية عند الاستراليين ١٢٨

الفريد دي مرسيه (غرام بين أديبين) ٤١

الليل نعمته ٢٥٧

الألمان ٢٦٨

الامساك تجنبه ١١٦

الأمومة نظامها ٢٧٩

الأمية مكافحتها ٥٠

(ب)

البراءة البابوية ٢٣٢

البر ٣٢

(ت)

التأله ١٦٨

تراث العرب العلمي ١٦٩

التعب ١٧٣

التعليم وبرامجه ١٤٥

التغذية في العهد الفرعوني ٨٩

التوازن الدولي ٣١٨

(ج)

الجهل ديمقراطيته ٣١١

(ح) وجه

الحرم الكنسي ٢٨٠

حصن الأخيضر بالعراق وحصن عين التمر ١٥٣

حكمة نموت وعلم بطوبه التراب ٨١

حكومة القساوسة ٢٣١

الحق الالهي ٣١٠

الحمل: زلاله ١١٣

حوت العنبر ٢٢٥

الحياة: عواطفها ١٠٤

(خ)

خطاب المدح في القرآن الكريم ١٤٩

(د)

الدعاية أسباب نجاحها ٢٦

الدمبكيون ٣٠٠

الدولة الفاطمية: أحسابها ٥٦

دون جوان العرب (عمر بن أبي ربيعة) ١٨٩

ديمقراطية الجهل ٣١١

ديوان التفتيش ٢٠٤

(ذ)

الذرة ميلاد عصرها ٢٤٩

(ر) وجه

الرأي العام الاجتماعي في مصر ٢٢

الرموز العلمية وتغييرها في العربية ٢٣٥

(ز)

الزهد ٢٤٣

زلال الحمل ١١٣

(س)

السيكومتري ٢٩٠

سلام على الصحراء ١

(ص)

الصيدلة وقدماء المصريين ٢٨١

(ط)

الطاقة الذرية وتسيير السيارات والطائرات ٣٠١

الطغيان: نشأته وصلته بالتجارة ١١٧

الطيور ١٧٨

(ع)

علماء الطبيعة والنبات تراجم مشاهيرهم ١٣٤ و ٣١٧

علم السياسة طبيعته وأساليبه ٦٩

العلم الألماني أصوله وبرامجه ٩

	وجه
العلم والفلسفة	١٧٤
علم الحيوان	٢١٠
عمر بن أبي ربيعة	١٨٩
العنبر: حوت	٢٢٥
عواطف الحياة	١٠٤
(ف)	
الفاطمية: أحسابها	٥٦
الفاطميون: نسب العبيديين	٢٤٦
الفاطميون ورأيهم في الخلافة	٢٣٥
(ق)	
(قصيدة)	
الربيع: قصيدة	٢٥٨
شجن: قصيدة	١٠٩
الى الشعراء	٢٨٩
خاسقة	٢٤٤
منية النفس	١٠٣
القانون الدولي أساسه وطبيعته ومستقبله	١٧ و٨٥
القنبلة الذرية: سرها	٢٥٩
القنبلة الذرية: السيطرة عليها	١٧٩
القنبلة الذرية والظواهر الروحية	١٢١
القيصرية في القرون الوسطى	٢٦٢

	وجه
(ل)	
لواحق المقتطف	
فلك الأغلال — يناير	
الالوهية والتفكر — فبراير	
القريد دي موصيه — مارس	
الأزهر بين الماضي والحاضر — ابريل	
سبينوزا — مايو	
(م)	
مجمع اللغة العربية مصطلحاته الحديثة	٢
المدرسة الخاتونية البرانية	٦٠
المستكشفات أحدثها	٢٠٥ و ٢٦٣
المعز لدين الله الفاطمي أسطورة تنصره	١١٠
المقتطف: حكمه	١٢٧
مكتبة المقتطف اسماعيل	٧٣
أنيسة: او رواية اخوان	
العدل	٣٢٣
البديع	٧٣
بعث الشعر الجاهلي	١٣٧
تأملات في الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع	٢٦٩

	وجه
حواء الخالدة	٢٧٠
خادمات المليونير	٧٦
ذكريات سعد بن أبي وقاص وأبطال القادسية	٧٤
الشعر والشعراء	٣٢٢
الفخري للاداب السلطانية	٧١
فلك الأغلال	٢١٩
فن القصص	٧٦
قناة السويس	٧٥
المقاس	٣١٩
نظرات في الحياة والمجتمع	٧٠
الوساطة بين المتنبي وخصومه	٧٢
المنطقة الايونية استكشافها	٣٠٧
(ن)	
نظام الأمومة	٢٧٩
النهضة	٨٨
(هـ)	
الهدنة الالهية	٢٩٨
الهون	١٣٣
(و)	
وعلم آدم الأسماء	٣١٣

« عشمل » قدر جدًّا ، فعاب عليه ذلك وطلب منه أن يعوّضه عنه ، فأجابه سبينوزا ، بأن الرجل لا يزداد قيمة إذا هو ارتدى « مشملاً جميلاً » وأضاف :

« ليس من الحكمة أن تحاط الأشياء التافهة الزهيدة بحلى ثمينة » . بيد أن سبينوزا لم يكن متعصباً لنظريته فيما يتعلق بالزي الى حد التقشف ، بدليل ما كتبه في أحد خطاباته : « ليس في إهمال اللباس أو عدم العناية به ما يكسبنا الحكمة لأن المغالاة في التظاهر بعدم العناية بالمندام قد يكون دليلاً على عقلية مبتورة لا يمكن أن تضم فيها الحكمة الصحيحة مكانة خليقة بها ولا يجد العلم فيها إلاّ بلبلة وتشويشاً » .

أما لوكاس فانه يتحدّث عنه بلهجة غير هذه ، فهو يطنب في مدح ما كان عليه أستاذه من النظافة المتناهية وهي من الفضائل التي قلما توجد عند الفيلسوف .

وقبل أن نستعرض الأعمال التي ترتبط بدراساته والسنوات الدقيقة التي أعقبت مقاطعته للدين اليهودي ، يجب علينا أن نقضي بما كانت عليه عقلية الوسط اليهودي الذي حكم أفراده على سبينوزا .

ان الدين اليهودي الذي نعم في إسبانيا بعهد رخاء وسكون إبان الحكم الاسلامي حتى سقوط غرناطة بيد فرديناند عام ١٤٩٢ ذاق الأمرّين على أثر إقصاء هذا الحكم عن شبه جزيرة إسبانيا . فقد استبدت محاكم التفتيش باليهود الاسبانيين فاستشهدوا بعد أن طلب منهم أن يختاروا بين اعتناق المسيحية وبين النفي ومصادرة أموالهم . على أن الكنيسة لم تضطهدهم ، والبابوات لم يناصبوهم العداء . ولقد طالما ضجوا بالشكوى من تصرفات محاكم التفتيش الوحشية معهم . وبجعل القول كان مركز اليهود في ذلك العهد مؤلماً رهيباً فقد طردوا من جنوا وذبحهم الوطنيون على سواحل إفريقية طمعاً في حليهم وأموالهم . ولقد مدّ بعضهم الرحالة كولومبوس بالمال للقيام بمغامرته — إذ انه كان من ملتهم وواحداً منهم — كما أن جماعة منهم رافقوه في سفينته وجازف غيرهم بحياتهم على سفن حقيرة ضئيلة صمدوا على ظهرها في المحيط الاطلنطي وتجنبوا سواحل فرنسا وانجلترا وعموا شطر ساحل هولندا حيث قابلهم شعبها القليل العدد بمظاهر الترحاب والعطف . ففي غضون تلك المغامرة المحفوفة بالمخاطر التي تتجلى فيها صورة اليهودي الثائه بأجلى معانيها ، هلك منهم عدد كبير إما غرقاً وإما

بالأمراض والوباء . فتلك الرحلة الشاقة المليئة بالمخاوف والمخاطر تفسر لنا موقف اليهود العدائي من سبينوزا . ان الألم يلد الألم كما يلد حالة نفسية خاصة تزعزع بالخوف الدائم . وهذا الخوف يزداد إذا انتقل من الفرد الى الجماعة لأن مشاعرهم تكون أكثر يقظة وحساسية وتبادلاً خصوصاً إذا كان أفراد هذه الجماعة يعانون أقلية ضئيلة . فلو أن الشعب الاسرائيلي كان في ارضه لما كان يرتكب مثل تلك النقيصة مع سبينوزا لأن شريعته في حد ذاتها مرنة نزيهة . وما كان ليرتكبها كما يقول أبراهمس ، لو أن منفه بن اسرائيل القبالي الشهير والرئيس الروحاني لليهود وصديق رامبراندت كان موجوداً إذ ذاك في هولندا ، إلاّ أنه كان في لندرا منهمكاً في مفاوضة كرومويل واقناعه ليأذن بفتح سواحل انجلترا ويسمح لليهود بالهجرة اليها .

والآن فلننظر كيف أبعد سبينوزا عن الطائفة اليهودية . لقد لجأ اليهود الى استردام حوالي سنة ١٥٩٣ . وكان ضمن المهاجرين جد سبينوزا وأبو . اللذان تخلفا قليلاً في مدينة دانت قبل الوصول الى أمستردام . وكانت عشيرة سبينوزا من التجار وجده باروخ ابراهيم ميخائيل دي سبينوزا رئيس طائفة اليهود الاسبانيين والبورتغاليين عام ١٦٣٩ . وكان أبوه أحد رجال الطائفة البارزين رئيساً لجمعية الاحسان اليهودي والمدرسة اليهودية . وقد تزوّج مرتين فأعقب ثلاثة صبية وبنتين مريم ورفقه من زوجه الأولى المتوفاة عام ١٦٢٧ وصبيًّا هو باروخ الفيلسوف الذي ولد في أمستردام في (كرلف عام ٥٣٩٣ بحساب التقويم العبري) ٢٤ من نوفمبر سنة ١٦٣٢، من زوجه الثانية حنة دبوراه المتوفاة عام ١٦٣٨.

وتلقى سبينوزا علومه الأولية في المدرسة العبرانية التابعة للطائفة كثير توارة وفي صومعة بيريرا « باشيبا بريرا » وكان التعريس يبدأ مع الساعة الثامنة حتى الساعة الحادية عشرة ثم من الساعة الثانية إلى الخامسة ويتولاه إسحق دي فونسكا أبو آب ومنسى بن اسرائيل وهاؤل مورتيرا ؛ ويشمل درساً في اللغة العبرانية والتفرد والشريعة والفلسفة حيث كانت تدرس مذاهب وشروحات ابن ميمون وحسداي بن شبروت وابن جبرين وموسى القرطبي وابراهيم بن عزرا . وعلمه منسى بن اسرائيل أسرار « القبال » . ولكن خيل إلى سبينوزا أن تلك الدروس ليست وافية ولا كافية لإشباع رغبته وإرضاء ذهنه وفطنته ، وأراد أن

يتجاوزها الى ما فيه ارضاء ميوله العلمية . فلم يتردد في خوض ميدان البحوث والدراسات التي كانت تعد في ذلك العهد على هامش التعليم المقرر من الطائفة . فدرس اللاتينية ، وهي اللغة التي كان يتخاطب بها جميع علماء ذلك العهد . وعلمه أبوه اللغتين الاسبانية والبورتغالية. وكان إلى جانب ذلك يعرف اللغتين الهولندية والألمانية مع قليل من الايطالية والفرنسية . ودرس الرياضيات والعلوم والفوزيقا والميكانيكا الفلك والكيمياء والطب على فرانز فان دمبراند الشهير بغزارة علومه وسعة معارفه . ودرس كذلك مبدأ « النوكلاسيك » الذي وضعه القديس توما الاكويني للتقريب بين المبادىء اللاهوتية والمبادىء الفلسفية ، ومؤلفات ديكارت العظيم الذي ساعدته كثيراً على دراساته الشخصية . على أن هذه الدراسات العلمية والفلسفية التي خاضها سبينوزا في شيء من المغالاة طبقاً لاتجاهات وميول عهد البعث الأدبي الثائرة والتي تدل على بوادر القطيعة التامة مع تعاليم « المدرسة » (وعلينا أن نذكر جيوردانو برونو وديكارت وجليليو) ، هذه الدراسات قد أثارت في ذهن الفتى سبينوزا أفكاراً لا تتناسب مع تعاليم الملة اليهودية وصوابها ووثق به اثنان من زملائه وأبلغا عن آرائه المارقة الملحدة وما هي عليه من الشبه مع آراء أوريبل اكوستا وأورابيا وقعا على أساتذتهما أن سبينوزا قد جهر بالقول بأن الملائكة ليست في الحقيقة إلا أشباحاً وان النفس فانية ، وان الله ليس إلا نضوء الجسم وامتداده . ولا مرية في أن تلك الآراء وان لم يثبت صحة صدورها عنه ، قد آلمت حكماء الطائفة . على أنهم لم يحكموا على سبينوزا فوراً وإنما حاولوا أن يسترجعوه اليهم فعرض عليه مورتيرا جعلاً سنوياً قدره الف فلورين نظير عدوله عن آرائه الجريئة . فأبدى سبينوزا اشمئزازه من من تلك الوشاية التي تشوّه أساس فكرته ولم يخف كراهيته لمساومته على حريته خصوصاً وأن الذي كان يساومه أستاذ الذي يشعر بالغيرة منه . وفي اليوم السابع من شهر يوليه لسنة ست وخمسين وستمائة وألف قضى مجلس الطائفة بحرمانه . وعلم قضاة أمستردام بتلك الواقعة وعدّ سبينوزا — من ذلك الحين — من ذوي الآراء الفاسدة والأفكار الجريئة السيئة . ولقد نجا بأعجوبة من طعنة خنجر وجّهها إليه أحد المتعصبين المتهوّسين .

كان سبينوزا في الثالثة والثلاثين من عمره عند ما حجر الأوساط اليهودية نهائياً ، وليس

شك في أن تلك العزلة قد أثرت في نفس مؤلف « الأخلاق » وأحدثت فيه شعوراً عميقاً بالحياة في وسط المجتمع أحب — في بعض نواحيها — من العزلة التي تحمل العقل على التأملات العميقة .

يقول سبينوزا : « فيما عدا الرجال فاننا لا نعرف في الطبيعة أي شيء غريب تستطيع النفس بواسطته أن تهنأ شيئاً من السرور وتستطيع نحن من جانبنا أن نرتبط به برباط الصداقة أو بأية صلة اجتماعية غيرها . »

كانت نفس سبينوزا وديعة تتألم من الفضاء الذي يحيط بها ويكفي للدلالة على ذلك أن نورد العبارات الأولى من خطاب له يعبر فيه عن خلجات القلب واهتزازاته : « انها تملؤني حزناً وقلقاً . إن قلقي ما فتيء يزداد يوماً إثر يوم ولهذا السبب أرجوك وأستحلفك بصداقتنا ألاّ تمل من الكتابة اليّ طويلاً » .

ثم أنه لم يغادر الحظيرة اليهودية بغير مرارة وأسى ، فقد كانت له بمثابة حضن أمه . ومع احتفاظه بكنز هذا الحضن الثمين وطهره فإنه يرد على أولئك الذين لم يدركوا عبقريته من تلقاء أنفسهم في كتابه « نبذة في اللاهوت والسياسة » الذي أحدث هزّة عنيفة بعد ظهوره. وهذا ما حمل نيتشه على اهدائه هذه المقطوعة الشعرية :

« أيها الناظر الى « الكل في الفرد »
« أيها الحب الالهي ، السعيد بما يفكر فيه العقل »
« انزع حذاءك : ان الأرض مقدسة ثلاث مرات ! »
« ولكن ، مرّات ، تحت ستار هذا الحب »
« كانت تعلي مراجل حقد كمين »
« فعند وب اليهود يستثير حقد اليهود ... »
« أيها الناسك ! هل فهمتك ؟ ... »

وذهب بعد قطيعته ليقيم في حجرة عالية مطلة على طريق أوتردك بالقرب من أمستردام وهناك أخذ يتردد على منتدى « الكوليجان » وهي شيعة منونية كشيعة « الكواكرس » وسرعان ما أسس هذه منتدى له رئاسة الأذكار لذاتها، قام فيه صيرون دفير بس بمهمة كاتم السر

وظل سبينوزا على اتصال متبادل مع أصدقائه في امستردام بكاتبهم بلا انقطاع . وكثيراً ما كانوا يلجئون إليه ويستوضحونه بعض المسائل الفلسفية العميقة . وفي غضون ذلك كان يكسب عيشه من قطع الزجاج وصقله للعدسات . وهو مدين بهذا الفن إلى معلوماته الرياضية وما فيها من تناسب وتناسق ، ثم إلى تربيته العبرية القائلة بأن المهنة التي يمكن المرء كسب عيشه منها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنقافة العالية عن الأغراض أو بدراسة التوراة . ويتبين من المقدمة اللاتينية لكتاب الذي نشر بعد تحت اسم « بعد الموت » إنه باشتغاله في صقل الزجاج واعداده للتلسكوبات والميكروسكوبات قد برهن « على ما كان يستطيع أن يعمله في هذا الفن وانه لو لم يعاجله الموت في غير أوانه لأمكنه أن يقوم بالكشافات جلية في هذا المضمار » .

وكان له تلاميذ في الفلسفة وكذلك في اللغتين اللاتينية والعبرية . أما أصدقاؤه في عهد توجيهه أي بين ١٦٥٦ و ١٦٦٠ فكانوا بيتر بالنج وجاري جلس ولودفج ماير وسيمون جوستم وفرلس وجان ريوفرتس .

ولقد اعترف الراعي كولروس أنه لاجدال للشك في أن سبينوزا قد تعلم شيئاً آخر في « مدرسة الشيطان » عن فرنسيس فان اند ، وقد شعر بعاطفة حب نحو ابنته .

وفي سنة ١٦٦٠ انتقل للاقامة في رينسبورج بالقرب من ليد ، والمنزل الذي كان يقيم فيه لا زال قائماً للآن ، كما أن الشارع الذي يوجد فيه يحمل اسم الفيلسوف . إن الرغبة في العمل التي كانت تتأكله بلغت عندئذ غايتها حتى لقد قضى ثلاثة أشهر دون أن يظهر أمام الجمهور . وقضى سبينوزا في تلك المدينة خمس سنوات في عيش هادىء بسيط وتأملات سامية عميقة ، وكتب رسالة في « إصلاح الادراك العقلي » وأخرى في « الأخلاق » على نحو ما تكتب البراهين الهندسية ، انتهى من وضعهما عام ١٦٦٥ . بيد أن تلك الفترة لم تنشر أبان حياته لما اتهم به — كما كتب إلى صديقه أولدنبورغ — من أنه أعدّ للطبع مؤلفاً يحاول أن يدلل فيه على عدم وجود الله . وقد انتهز تلك الفرصة بعض رجال اللاهوت الذين روّجوا تلك الاشاعة ورفعوا شكاية إلى الأمير والقضاة . ولم ينشر كتاب « الأخلاق » إلا عام ١٦٧٧ ، أي بعد موت الفيلسوف وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه نبذته عن « قوس قزح » ونبذة أخرى غير مستوفاة عن السياسة . وفي عام ١١٥٤ نشر ان فرتين

على « نبذة صغيرة في الله والانسان » كتبت باللغة الهولندية ويمكن اعتبارها مذكرة تمهيدية لكتاب « الأخلاق » . وكتب كذلك مؤلفاً صغيراً عن القواعد التي يمكن بواسطتها حساب الحظ .

أما الكتب التي نشرت في حياته ، وأحدها تحت اسم مستعار ، فهي « مبادىء فلسفة ديكارت » عام ١٦٦٣ وقد وضعه خصيصاً لتلميذه الشاب البير دي بوروج لأنه لم يتمالك أن يطلعه على أسرار فلسفته الخاصة ، وذيله بنبذة عن « الفكر » ، ثم رسالة في « الدين والدولة » عام ١٦٧٠ . وقد ظهر هذا الكتاب ضمن فهرس الكتب المحظور بيعها ، فكان هذا الحظر عاملاً على رواج الكتاب وصاروا يتداولونه تحت أسماء مستعارة ، وكتبت عنه مؤلفات كثيرة انتقده وفحص ما جاء به .

وعظمت شهرة سبينوزا ، فأصبح على اتصال وثيق بذوي الحيثيات . فالى جانب هنري أولدنبرغ ، أول كاتم سر للجمعية الملكية في لندن الذي كان يراسله طويلاً ، كانت علاقته شديدة بستنو مؤسس الجيولوجيا الحديثة ، وهوجنس صانع المجسمات ؛ وليبنتز الذي زاره عام ١٦٧٦ ، والدكتور لويس مايز ، والكونت تشيرنهوس . وقد كانت صداقته بجان دي ويت متينة واستمرت تلك الصلة زهاء خمس وعشرين سنة . وعند ما قتل دي ويت وأخوه على قارعة الطريق بيد جماعة من الشعب إذ ظنوا أنهما السبب في هزيمة الجيوش الهولندية في حربها مع فرنسا عام ١٦٧٢ ، بكى سبينوزا بكاء الأطفال عند سماعه نبأ الجريمة ولو لم يحل بينه وبين عزيمته بالقوة لكان انتقل ، كما فعل أنطونيوس عند مقتل قيصر ، إلى مكان الجريمة وندد بفاعليها . وبعد روح قصير من الزمن استدعاه البرنس « دي كوندية » ، قائد الجيش الفرنسي ، إلى زيارته في معسكره ليهنئه على ثقة ملك فرنسا ومودته والجعل السنوي الذي قرر أن يمنحه إياه ثم ليقدم له بعض المعجبين به . ولما كان سبينوزا « أوربيًّا طيباً » أكثر مما كان وطنيًّا متعصباً ، فانه لم يجد في تلك الدعوة غضاضة وصار إلى معسكر « كونديه » وعند ما آب إلى لاهاي كان نبأ تلك الزيارة قد انتشر فثارت ضده عاصفة استياء هوجاء وخشي فان دن سبيك مضيفه أن يهاجم الشعب بيته . فطمأنه سبينوزا بقوله : « اني لاستطيع أن أبرىء نفسي وأعتبر بها عن كل خيانة أوربية . . . فاذا أظهر الشعب أدنى

ميل لمضايقتك — ولو على سبيل التجمهر والصياح أمام منزلك — فاني أذهب اليه وأواجهه ولو لقيت حتفي منه كما لقيه المسكين ويت » . على أن الشعب عرف أن سبينوزا ليس إلاّ فيلسوفاً فقرر ألاّ خطر منه . إذ ذاك هدأ اضطرابه وسكن .

وأقام سبينوزا عدة سنوات في رينسبورج ثم انتقل منها الاقامة في فوربورج عام ١٦٦٣ . وفي سنة ١٦٧٠ قرر الاقامة في لاهاي بالذات حيث عقد أواصر صداقة متينة مع كثير من الاخوان الأوفياء من ذوي المكانة والنفوذ .

وكان يعيش عيشاً بسيطاً جداً قانعاً للغاية ، لا يرمي من وراءه إلى غاية أو غرض . فنفقاته اليومية كانت قاصرة على النذر القليل وهذا ما كان يساعده على العيش طيلة عامه في حدود ميزانيته . ويصف نفسه بأنه يفعل كما تفعل « الأفعى التي تضع ذنبها في فمها للتسريح » وكان سبينوزا — على الرغم من طبيعته الصوفية — لا يمتدح الزهد والتنسك ويتقبل الحياة مرحاً مسروراً . وقد كتب في ذلك : « إن الضحك وكذلك المرح والمزاح ألوان من السرور فهي والحالة هذه مستحبة في ذاتها ما دامت بغير إفراط . وليس ما يحول دون الاستمتاع بالملذات إلاّ عوامل وحشية وتطيّر كثيب . فهل يوجد خير من إقصاء الحجر والهموم لاخماد وطأة الجوع والظمأ ؟ تلك هي طريقتي وكل عقيدتي وايماني . وإذا نحن استثنينا الحسود فإنه لا توجد أية ألوهة تسر من عجزي وألمي ، وليس أقدر منها على جعل دموعنا وزفراتنا وخوفنا ، وغيرها من مظاهر ضعفنا الباطن ، بمثابة فضيلة فينا . وإن الأمر لعلى عكس ذلك ، فبقدر تعاظم السرور الذي يبدو فينا ، وبقدر تعاظم درجة الكمال التي ننتقل إليها ، تكون نسبة اشتراكنا في الطبيعة الالهية كبيرة . وإذن فن الحكمة كما كنت أقول ، أن يستعين المرء في غذائه وتجديد قواه ، بأطعمة شهية وشراب لذيذ مع مراعاة الاعتدال في تناولها ، كما يستعين أيضاً بالعطور وينعم بالنباتات الزاهرة والرياحين وازينة والموسيقى والألعاب الرياضية والتمثيل وما أشبه ذلك من الأشياء التي يستطيع كل انسان أن يتمتع بها بغير ما اضرار بالغير » .

ولم يكن سبينوزا بعيداً عن الحياة السياسية أو غير مكترث بها . فمغامرته في هذا السبيل كادت أحياناً تودي بحياته . وقد شق طريقه في هذه الحياة على الرغم من المآزم التي توقع

عليه ولكنه لم يكن يطمع في جاه أو ثروة . ومن تلك الناحية كانت حياته شديدة الشبه كثيرة الملاءمة بحياة الطبقة الراقية الارستوقراطية وبالروح السائدة في بني اسرائيل والأنبياء وعظماء الرجال الذين سموا بأفكارهم وأعمالهم الجليلة والمكابيين ويسوع . وقد رفض هبة ألفي وخمسمائة فلورين قدّمها له صديقه سيمون دي فريس من ثراة تجار امستردام . وعندما عرض عليه المذكور بعد ذلك أن يخلف له ثروته بأكملها ، أقنعه سبينوزا بأن يترك جميع ما يملكه لأخيه . وعند وفاة التاجر اتضح انه حدد في وصيته أن يمنح سبينوزا معاشاً سنوياً قدّره بستمائة فلورين تؤخذ من ريع أملاكه فحاول سبينوزا مرة أخرى التخلص من تلك الهبة قائلا : « ان الطبيعة تقنع بالقليل وما دامت حالها كذلك فتلك هي أيضاً حالي » . على انهم حملوه في النهاية على قبول ثلاثمائة وخمسين فلورين في كل عام . وضمن له صديق آخر ، هو جان دي ويت كبير قضاة الجمهورية الهولندية مائة فلورين معاشاً من الدولة . وفي النهاية عرض عليه الملك العظيم لويس الرابع عشر بنفسه معاشاً بشرط أن يهديه سبينوزا المؤلف الذي سيضعه . فرفض سبينوزا هذا العرض في قالب مفرغ باللباقة والكياسة . كما رفض منصب محاضر في جامعة هايدلبرج وأجاب على ذلك العرض المغري بما يأتي :

« لو انني شعرت من نفسي بميل يدفعني يوماً الى شغل منصب للتدريس لما رغبت »
« نفسي في غير المنصب الذي يعرضه عليّ سمو الحاكم بواسطتكم لاسيما وان سمو الأمير »
« قد تنازل وسمح لي بحرية التفلسف . فماذا عما أشعر به من رغبة في العيش في بلد »
« يحكمه أمير يعجب الكثير بحكمته . بيد انني لم أشعر أبداً بدافع الى التدريس ولذلك »
« لم أستطع أن أحمل نفسي على انتهاز تلك الفرصة الطيبة . ان أول ما أفكر فيه هو »
« انني سأضطر الى التخلي عن أبحاثي الفلسفية اذا أنا انقطعت الى تعليم النشء . »
« ومن جهة أخرى فاني أجهل الحد الذي ستقف عنده حرية آرائي الفلسفية حتى »
« لا أظهر بمظهر من يحاول أن يعكر صفو دين الدولة الرسمي . . . فأنت ترى إذن »
« يا سيدي ، ان ما يمنعني ليس الطمع في حظ أوفر ولكن هي راحتي وطمأنينتي »
« التي يجب أن أنشدها وأصونها بتجنب الدروس العامة . »

كان سبينوزا يجلس امام مكتبه منذ الفجر فيعمل ويتأمل . فلا يقطع قطعة من الاسطوانة الزجاجية بماكنته إلاّ « ويستأصل فكرة من المذهب العظيم الذي كان كامناً في خليقة نفسه بحالته الطبيعية دون أن يهذبها أو يصقلها »

وكان يترك حجر المسن من وقت لآخر ليجلس الى جانب زائريه في البهو الكبير . وأحياناً كان يدخن غليوناً مع الرسام الشهير فان دن سبيك ويتحدث معه عن الرسم ، اذ أن سبينوزا كان يعرف الرسم ولديه كراسة مليئة بالصور . وكان كذلك يرسم صور من زاروه من مخيلته .

ولم يطل أمد تلك الحياة المضطربة القلقة . وكان مصاباً بسل رئوي . فاستسلم مع الأسف لموت مبكر عاجل ، على الرغم من أنه كان يكتب الصفحات المؤثرة الدقيقة في معنى الحياة وفوائدها . ولكنه كان يخشى على أشهر مؤلفاته « الأخلاق » من الضياع أو العبث به عقب موته . فوضع أصول هذا المؤلف النفيس في مكتبة صغيرة لديه وسلم مفتاحها الى مضيفه وسأله أن يحمل المكتب بما فيه الى جان ريو ورتز الناشر في أمستردام إذا ما حمّ الأجل المحتوم . ومات الفيلسوف في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٢٠ فبراير لسنة ستمائة وسبعة وسبعين وألف وهو في الرابعة والأربعين من عمره بين ذراعي صديقه الوفي ، الدكتور لويس مايير . وحمل جثمان الفيلسوف ، بعد أربعة أيام إلى المعبد حيث صلى عليه الراعي كوردس ثم نقل النعش إلى المدافن حيث وضع في حفرة عمومية . وقد بكاه كثير من الناس لأن كثيراً منهم أحبوه لوداعة أخلاقه بقدر ما أجله العلماء لحكمته . وانضمّ عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين ورجال القانون إلى جموع الشعب في تشييع الراحل الى مقره الأخير .

وأرسل صديقاه لويس مايير وشول جميع مؤلفاته التي لم تنشر الى ناشر كتبه ريو ورتز في أمستردام سرّاً فظهرت كلها في نهاية السنة التي مات فيها أي عام ١٦٧٧ تحت عنوان « أوبرا بوستوما » بقلم ب . د . س . وكانت تشمل « الأخلاق » و « النبذة السياسية » و « اصلاح الادراك العقلي » و « رسائله » و « الأجرومية العبرية »

٣ – مصادر المذهب الاسبينوزي

انه لمن أهم الأمور — قبل التبسط في تحليل دقيق لمذهب سبينوزا — أن نستظهر ، على قدر المستطاع ، جميع نواحي إلمامه ؛ إذ أن كثيراً ما يُساء فهم فلسفة سبينوزا ، وكثيراً ما تطبق تلك الفلسفة بطرق منوعة متباينة ، وأحياناً تكون في تطبيقها خاضعة لمزاج من يدرسها واستعداده الشخصي . فالماديون والروحانيون والعلماء والمفكرون الأحرار لا يترددون في أن يستندوا إليها ، كل بحسب طريقته ، صفات غريبة عنها على الرغم ، طبعاً ، من تحبيذهم لها أو اشمئزازهم منها . على أن ما هو أعظم من ذلك هو أنهم يحاولون الجزم بتبعية تلك الفلسفة لاحدى الأنفية . ولكنهم يخطئون كثيراً في فهم سبينوزا .

لا شك في أن سبينوزا قد تأثر كثيراً . ولكن ، أي مفكر يستطيع القول بأن ما أورده كان — على الاطلاق — من ابتكاره الشخصي دون أن يلجأ — ولو عن غير عمد — إلى أفكار أخرى مطابقة لأفكاره تماماً ؟ على أنه قلّ أن تحافظ تلك الأفكار على صبغتها الأصلية عند العالم المتعمق في النظريات ، لأنها تتأثر وتتحوّل في دماغه تحولاً عميقاً فتتخذ لنفسها جديداً وتتضخم بحصة جديدة من الأفكار المستحدثة . وهذا ما يفسر لنا الشخصية الخلاقة في سبينوزا . فالى جانب العلاقات المنوعة التي تربطه بطبيعته إلى تلك المدرسة أو سواها ، يوجد سبينوزا بالذات كما توجد عبقريته الخاصة ، والابتكارات الفردية التي يخلقها الفنان الذي يمثل عمله عروقه التي يسري فيها دمه ونفسه ، والذي لا يبدي استعداداً ما للامتزاج بغيره أو الاندماج به .

ومع ذلك فإذا نحن حاولنا أن نشرح المذهب الاسبينوزي بتحليل مستفيض دقيق . فلا شك في أنه يمكن اكتشاف عناصر مختلفة يحتمل تقسيمها تيارين واضحين بينين ، الفلسفة اليهودية وفلسفة ديكارت . إن أصول علمه تما بعد الطبيعة ، والتأثر الذاتي لتأملاته السامية ، تقوم كلها على أساس يهودي جوهري . أما الاسلوب ، أو إذا شئنا ، الكيفية

التي يقدم بها قيامه في مظهر واضح جلي ، فلا شك في أنه متنبس عن مبدإ ديكارت . إن الرجل ، مهما كانت ملكة التشبه فيه قوية ، لا يستطيع بتاتاً أن يحور أساس كيانه الذي ترتبط به ألياقه بنواة وراثية خاصة . ان جميع الأفكار الجديدة التي يكتسبها لا تنضج فعلاً ما لم يكن بينها وبين تلك النواة نوع من التجانس . فكل جديد يلحق بالقديم بصفة ونتيجة بحيث يسهل تمييزه وفصله . ولا يمكن أن يمتزج بالقديم تماماً إلاّ إذا اكتسب نوعاً من القوة المرتبطة بمدة زمنية بعيدة المدى لا تقل في نسبتها عن عدة أعقاب .

وإذن، فيما يتعلق بالمذهب الاسبينوزي، يجب أن نبدد في الحال خطأ يخال أنه سيظل متأصلاً في أذهان بعض الشراح البارزين ، فمذهب سبينوزا برمته هو ، في نظرهم ، عبارة عن مذهب ديكارت مع بعض الاختلاف وبعض المغالاة . ولكن إذا نحن تناولنا الاشياء في ذاتها، أي إذا نحن أعدنا الحكم إلى الموضوعية بعد أن تتوارى أمام الوقائع ، وهذا ما يجب على كل باحث منقب أن يعمل به — فاننا لا نلبث أن نلاحظ أن سبينوزا ، في خصائصه وذاتيته ليس مريباً لديكارت ، وأن هناك هوّة سحيقة بعيدة الغور تفصل بين الفيلسوفين . إن ديكارت من أتباع الاستقرار الاجتماعي وسبينوزا من أتباع التحور الاجتماعي . إن الأول « عقلي » يتقيد بكل ما هو جلي بين وبكل ما يمكن أن يتحول إلى رياضي بحت وبكل ما هو كمّي يمكن تمييزه، في حين أن الثاني متصوف ومذهبه العقلي ملطّف ويلوح كأنه آلة للتفسير الحسن . إن سبينوزا عالم بحت بما وراء الطبيعة وهو يرمي في منهجه إلى ادراك التمة في المثال والوصول إلى « الكل الأعظم » ، إلى الله ، في حين ان ديكارت الذي بدأ من البسيط ليصل إلى المقصد دون أن يحيد عن المنظور والمحسوس ، قد ترك الالوهية للاهوتيين وقصر عمله على أن يشرح شرحاً واضحاً ، بعد فترة لا شك طويلة ، حقيقة قوله « إنني أفكّر وإذن فأنا موجود » ، والحركة الحيوية التي تنشأ عن هذا القول . وقد كتب سبينوزا الى اولدنبورغ : « تسألني عن الأخطاء التي ألاحظها على فلسفة ديكارت وفلسفة باكون ؟ إنني وإن كنت لم أتعوّد الاشارة الى أخطاء الغير الا أنني أسلم برغبتك . إن أول الأخطاء وأعظمها هو انهما بعيدان تمام البعد عن معرفة السبب الأول في جميع الأشياء

وأصلها . والثاني هو أنهما لا يعرفان حقيقة طبيعة النفس البشرية . والثالث هو أنهما لم يدركا السبب الحقيقي في الخطإ » .

ان « بروشار » قد ميز تماماً علاقة سبينوزا بالفكرة اليهودية وإن كان يمكن إبداء بعض التحفظات على ما كتبه عن « رب » اسبينوزا ؛ فقد قال : « لا يجب أن يغرب عنا أن طريقة مدرسة الاسكندرية في فهم معنى الألوهية وتصورها كما أخذها سبينوزا عن أساتذته اليهود والعرب ، مرتبطة منذ نشأتها بالدين اليهودي . فالفكرة اليهودية قد انتقلت إلى العالم الغربي بواسطة « فيلون » في بدء عصرنا . فوجود مثل هذا التجانس الطبيعي كان لا بد أن يحمل سبينوزا على البحث عن مدارك من هذا القبيل . فما كاد يكتشف عند خلفاء أفلوطين تلك الطريقة في فهم الله وتصوره وملاءمتها لمداركه وتفكيره ، حتى استأنف سيره في تلك الطريق مع بقائه وفيًّا لروح جنسه . ومما لا شك فيه أن أسس منهجه وكذلك روح ذلك المنهج قائمة على فكرة يهودية على الرغم مما طرأ عليها من تعديل واضافة . « فربُّ » سبينوزا هو « يهوه » مع كثير من التحسين في طريقة فهمه وكيفية تصويره » .

لقد قرر هرفدنج صراحة كما قرر جوئيل ، « ان سبينوزا لم يكن ديكارتيًّا على الإطلاق ولكنه درس كثيراً تعاليم ديكارت ، واستعان بالكثير من أفكاره ، واستخدم جزءاً من مصطلحاته الفنية » . ولا شك في أنه أخذ عن ديكارت طريقة ترتيب الحقائق وتنظيمها مسلسلة وهي تلك الطريقة التي تبدأ « بعرض الأفكار واضحة جلية وتظهر قوة الإدراك وغزارة الفهم بواسطة خلق العلوم الرياضية وعلم الطبيعة » . فديكارت هو الذي عنده « أن اكتساب اليقين سابق لاكتشاف المنهج » . وعلى هذا الاعتبار يلاحظ برونشيج أنه « إذا كان المعنى الظاهر عند سبينوزا مقتبس عن ديكارت فإنه « يعتبر متمماً للمعنى الظاهر عند ديكارت نفسه ما أضافه إليه من الافكار الجريئة » . على أن جول لانيو ، الاسبينوزي المدقق ، يشرح لنا بحذق ولباقة أنه « يجب فهم المنهج » أو بالأحرى نفس سبينوزا حتى يمكن الوصول إلى فهم أهمية الحوار الأول ، واستنتاج حصة المذهب الديكارتي منه وهي تكاد تكون معدومة ، وحصة المذهب اليهودي وحصة المسيحية وهي الراجحة ؛ في تكوين الشخصية » . إن الفرق بيّن بين سبينوزا وديكارت . ويستطرد لانيو :

«ان ديكارت يبدأ بالشك في حين أنه لا يوجد أثر للشك عند سبينوزا ، فهو منذ أن وضع مبداه ، متعمق في الايمان، وذلك لأن كل ما فيه نتيجة للشعور والاختبار الداخلي».

إن « سعيه وراء الوحدة المطلقة يهودي النزعة » ومنهجه يعد في جوهره « انتقاماً » للفلسفة العامة وللفلسفات اليونانية والشرقية والمسيحية من المذهب الواقعي الفرنسي - إن شك ديكارت الوقتي ليس في الحقيقة الاّ مبدأ تامًّا وتطبيعة كلية للعادات البشرية . ودخل سبينوزا الميدان وبين أن الفكرة العلمية ستكتسب من دخوله أكثر مما ستخسره. وإلى جانب ذلك فان أساسه الديكارتي الذي يرتبط ، بوجه خاص « بالمقال عن الاسلوب » يتغلب ، على حد ملاحظة فرودنتال ، على جميع ما استعاره من الفلسفة المدرسية .

وإنه ليظهر أن جيوردانو برونو إذ يتمسك بأن « المبدأ الاول لانهائي في جميع خصائصه وبأن إحدى تلك الخصائص هي الامتداد ، يعد مصدراً غير مباشر للاسبينوزية . إن بايل كان يدلل على أن افتراضه شبيه تمام الشبه بالاسبينوزية . . . » ليست عظمة الله وما يتبعها عقيدة أقل إلحاداً عند جيوردانو برونو منها عند سبينوزا . فكلاهما من أشد أنصار الوحدة». ان النقد الحديث مع صيحورات وأفينارْيوس« قد بين أوجه الشبه، إلى حد ما . بيد إنه لم يستطع أن يميز أيها يحمل البرهان على تأثير «برونو» عليه تأثيراً خاصًّا . إن وراء برونو وسبينوزا يوجد مذهب الأفلاطونية الحديثة « الذي أثرت روحه في علم ما بعد الطبيعة الذي يدرسه رجال اللاهوت اليهود، أول أساتذة سبينوزا » إن « برونو»، على حد الملاحظة الصادقة الواردة في الموسوعة اليهودية ، قد استلهم الوحي بغير ما ريب ، من الكباليين الذين يدينون بمذهب الحلول، أي أن الله موجود في الكون وليس هو علة انتقال

ومع ذلك فان جوئيل يُلح في تلك الفكرة وهي أن سبينوزا ليس ابن «البعث» أو مريد ديكارت . إن قرابته يهودية بنوع خاص . إن مؤلف « الاخلاق » يستشهد بأسماء بعض حكماء اليهود كيهوذا البهار وحصداي كرسكا ، وجرسونيد وابن ميمون الذين اقتبس عنهم. وقد امتكى سبينوزا بكثير من أعمال هؤلاء المفكرين وغيرهم كراشي وابن عذرا واستعان بها دون أن يأتي على ذكرهم . إن تمييز الخصائص عند سبينوزا وكذلك نظرات هذا الفيلسوف عن الخليقة وعن الإرادة الحرة وعن حب الله وعن مذهب القدرية قد ورد ذكره، في « النور

الالهي» الذي ألهمه حصداي . وبالاجمال فان جوئيل يضيف «كل ما أمكن أن يزهر في دراسة سبينوزا النظرية يمكن أن يميز عند كرسكاس » . ففي الحب الروحاني يلاحظ جوئيل أيضاً أن سبينوزا قد اقتبس عن كرسكاس ، فيما يتعلق بالحب ، وعن ابن ميمون كل ما هو خاص بالادراك والفهم . إن سبينوزا ، على غرار حصداي كرسكا ، يعارض ابن ميمون وأرسطو. على ان هذا لم يمنعه من الاقتباس من مؤلف «دلالة الحائرين[1]» لاسيما في رسائله عن الشكل الانساني فبعض فقراتها تقوم دليلاً قاطعاً على تأثير ابن ميمون عليه تأثيراً كبيراً .

وهناك أيضاً مصدر يهودي هام لجأ إليه سبينوزا واستقى منه كثيراً من العناصر لارتباطها ببحوثه فيما بعد الطبيعة ، وهو « الكبال » . وفيلسوف كفؤ يورج لم يجهل ذلك أو ينكره حيث يقول : « لقد قرأت كذلك لبعض الكباليين ووقفت على ترهاتهم وأباطيلهم ودهشت كثيراً لجنونهم »

إن روحانيته تمتاز بطابع خاص . ولاشك في أن هذا الطابع كان يحول دون استساغتها لناحية الخيالية التي تنطوي عليه الرموز الكتابية وما يحيط بها من الأوهام . بيد ان تصوفه ، وكثيراً من نواحي مذهبه وأركانه الهامة ، مشتقة بغير ما ريب ، أو قل ما يكون بغير ما شعور بالواقع أو تعمد ، من « الكبال » . إن الصورة التي وضعها للكون لا تخلو من بعض الشبه مع ما تصوره به الدوالم . كما ان فكرته عن الحلول شبيهة بفكرة الفيوض ، ومن ناحية أخرى خاصة فان اللانهائي عنده شبيه بالأزلي . إن الأزلي في عرف «الزوهار» الذي يوجب الانبساط والامتداد يؤدي « في انحطاطه إلى الفكرة وإلى المادة ولا يخرج عن كونه انحطاط للفكرة بالذات » . وفي ذلك يكتب سبينوزا : « وهكذا فإن نوع الامتداد وفكرة هذا النوع ، ليسا إلاَّ شيئاً واحداً ، ولكن يعبر عنهما بطريقتين مختلفتين ، وهذا ما يخيل إلى بعض العبرانيين انهم رأوه كما ترى الأشباح خلف الغمام »

وإنه ليكفي أن نورد بدقة من موسى كوردوبرو ، مفسر «الزوهار» المبدع ، للوقوف على ما يوجد من التقارب بين المذهب الاسبينوزي والكبال : « إن الخالق يؤلف بذاته المعرفة، والذي يعرف، والشيء المعروف . وفي الواقع أن طريقته في معرفة الشيء لاتقوم على

(1) Guide of the Perplexed

تطبيق فكرته على أشياء خارجة عنه . ولكنه ، بفضل معرفته لذاته وعلمه بذاته ، يعرف كل ما هو كائن ويرى كل ما هو موجود . فلا يوجد شيء إلاّ إذا كان متحداً معه ويوجد في جوهره الذاتي » .

وقد قال سبينوزا كذلك : « لا يوجد أي سبب ، سواء أكان خارجاً عن الله أو في ذاته ، يدفعه إلى العمل إن لم يكن كمال طبيعته » .

ويخال أيضاً — ونحن نورد ذلك في منتهى التحفظ — ان سبينوزا قد تأثر قليلاً بحوار الحب الذي ألفه ليون العبري (مؤلف نشر عام ١٥٣٥)

إن جميع المصادر التي جئنا بها تتضمن ، في الواقع ، أشياء قليلة عن المذهب الاسبينوزي فهذا المذهب ، في مجموعه يتجلى لنا كمجهود عظيم وبناء ضخم . والواقع أن سبينوزا تأمل طويلاً في الليالي الطويلة التي أمضاها وما قرأه لم يكن ذا تأثير كبير عليه . إن فكرته الخلاقة المتجلية في كتاباته تدل على بدعة نادرة ، خصوصاً إذا كانت ترمي الى دائرة معقدة فسيحة تشمل الكون بأسره .

٤ - الاسبينوزية

إن القاعدة النظرية من فلسفة سبينوزا تقوم في الواقع على اعتبار « الكل » وعلى علم « ما بعد الطبيعة » واقعي يرمي الى تفسير أصل الأشياء وكل ما يطبل العقل الحائر . فهو لا يستسلم لأي كذب أو اختلاق أو أي تقريب أو أي شك أو أية هزيمة . ليس علم ما بعد الطبيعة في نظره مكاناً متشعب الطرق يختفي الضياع فيه ، فهو قائم على قواعد صحيحة مختبرة ذات قيمة علمية وثيقة صارمة غير قابلة لأي نزاع كالقواعد الرياضية البحتة . على أن نقطة البدء في تلك الفلسفة يترك في ذهن من يدرسها بعض الغموض على الرغم من متانة العمل وجلائه في ارتباط براهينه وايضاحاته . ويجب ، لفهم سبينوزا ، ألاّ يكتفى بالتقمص في روح هذا الفيلسوف أو جسّها بتأمل دقيق طويل ، ولكن يجب ألاّ تفوت الذاكرة ، ان التركيب الحكيم ذا النظم الرياضية الذي يتجلى به عمله — وأخص بالذكر مؤلفه العظيم « الأخلاق » — ليس في الواقع إلاّ وسيلة منظمة خصصت لتبديد بعض الأخطاء الشائعة في عصر تجلت فيه ثورة العقل البشري تحت راية العقل السامي المفعّالة . إن سبينوزا أحد أتباع النزعة المتحمسين ومن أشياع ذلك الجو الثوري الذي عاش فيه رجال أمثال كوبرنيكوس وجاليليو وبرونو وجيلبرت وهارفي وبويل وديكارت وهوجنس وبسكال وليبنتز ونيوتن . إنه يخول للعقل دوراً رئيسيًّا ما دام أنه لا يتردد في إخضاع مراقبة الكتب المقدسة لتصديق العقل . على ان ذلك في الواقع ليس إلاّ وسيلة ظاهرة بعيدة عن أن تذلل الصعوبة الملازمة لفلسفة سبينوزا . لقد كان سبينوزا وسيظل في ذاته متصوفاً حدسيًّا . فوراء جميع الخطوط الهندسية المنتظمة أو الهندسية التي تملأ بوجه خاص كتاب « الأخلاق » يتوارى العقل الملتهب الثائر ذو القوة الكامنة ، عقل النبي الذي يدرك الألوهية والكائن الكلي عن طريق الرؤيا أو الالهام أو نوع من التحاور مع الأشياء . ومثل هذا الخلق يعيد إلى الذاكرة ، من تلك الناحية ، استعداد الخالق الخلقي والفنان العبقري . إن سبينوزا يلتقي ،

٥ — حضارة المذهب الاسبينوزي وتأثيره

لقد وقفنا مما تقدم على الصفات المميزة لتلك الفكرة الفنية التي جمعت في أغراضها الكون بأسره أو الكل . وقد لاحظنا كذلك ان فلسفة سبينوزا ليست غريبة عن شجون الحياة اليومية الكثيرة التي تشغل الانسانية . إنها ترمي ، تحت مختلف مظاهرها الميتافيزيقية والأخلاقية والنقدية إلى إيجاد حلول موفقة وارشاد من أزعجهم القلق إلى حد الإضناء ومن يتألمون في داخليتهم وهم صامتون . إن سبينوزا إذ يتوجه بحديثه في مؤلفه الشهير « رسالة في السياسة » إلى عطف « القارىء الفيلسوف » لا يخشى أن يحظم من أساسها العقائد التي لا تتفق مع النور الطبيعي ، ولا مع ذكاء الأحياء الوقاد . إن التطير هو الذي يصعب استئصاله من نفوس الدهماء . ولقد كان هذا التطير السبب الأوحد « في كثير من الاضطرابات والحروب الطاحنة » . وكان سبينوزا لا يتردد في نقد الكتب المقدسة نقداً شديداً عند ما يتناولها بالفحص الدقيق وحرية الرأي والتفكير بغير ما تحير أو تحايل . وهكذا كان يبدد كثيراً من الأغلاط والأخطاء . « ليس للمعرفة الملهمة غاية غير الطاعة » . ثم إنه يشهر بالجشع السافل والطمع عند من يدّعون نشر الايمان بالله وهو يقول :

« لقد رأيت مراراً عدة ، رجالاً يفاخرون بتعاليم الدين المسيحي ، أي تبادل الحب والاخلاص بين الجميع ، رأيتهم وهم يتنازعون فيما بينهم ، ويتناحرون بحدة وسوء نية متناهية ، ولا يخفون عن بعضهم أمارات الحقد والضغينة ، بحيث كان إيمانهم يتجلى من هذه العواطف أكثر من تلك » .

إن الغبطة الحقيقية ، ليست من حظ البعض دون البعض الآخر وهي كيموع لا تستثني أحداً . « وإذن فمن يُسر من ضرر الغير فهو حسود لئيم لا يعرف الملكة ولا المكينة في الحياة الحقيقية . »

تؤثر في عالم الروح وفي عالم المادة ، يدعونا سبينوزا إلى إمعان النظر في نفوسنا وفي كل شيء من الوجهة الأزلية . وإنه بذلك يردنا بقاقتنا من شكوك إذ يجعلنا نشعر بأننا نكوّن وحدة مع الكائن السرمدي اللانهائي .

فلنجتهد في أن ندرس عن كثب جمال تلك الفكرة وضاءا في مختلف أدوارها وأطوارها .

١ — طبيعة المعرفة

ان سبينوزا ، بما عرف عنه من شدة الاهتمام بصحة ما يؤكده من الحقيقة والبحث عن الحقيقة ، يشرح بصراحة لا تأتي الانفعال ، سلسلة مبادىء ، لم تتم ، مع الأسف ، عن تنظيم الادراك العقلي . وان الانسان ليرى فيها ، كما يرى في جميع كتاباته وفي جميع نظرياته ، روح الفنان ، روح سبينوزا تتلألأ وتتجلى في اتحاد غرضين متباينين تمام التباين : فمن جهة ، العالم عما بعد الطبيعة الذي يقدر ، في كل ما يعالجه ، منبت الأشياء وقيمتها الأصلية والكائن في جميع عظمته وسلطانه ، ومن أخرى ، المهذبُ الاخلاقي الذي يراعي دائماً الحرية والسعادة والغاية والحياة الداخلية السعيدة .

وهكذا فإن فيلسوف لاهاي ، قبل أن يشركنا في المنهج الذي لابد من وجوده لتقدير الأمور على وجهها الصحيح ، يعترف لنا بتواضع بمقدار ما لقيه من عناء وتفكير ليتوصل إلى اكتشاف هدوء النفس وحالتها الطبيعية . ولقد كتب :

« لقد علمني الاختبار أن أغلب المصادفات التي تقع في الحياة العادية وهية باطلة »
« ولقد كنت أرى انه لا يوجد بين الأشياء ، التي كانت لي منبعاً أو مادة للخوف ، »
« شيء واحد يتضمن في ذاته خيراً أو شرًّا إن لم يكن بنسبة التأثير الذي ينيره في »
« الروح . ولقد اعتزمت في النهاية أن أبحث عما إذا كانت هناك مادة يصح اعتبارها »
« خيراً حقيقيًّا يسبل تبادله وتستطيع النفس أن تتأثر بواسطته بعد أن تزهد في كل »
« شيء آخر : خيراً تكون ثمرة اكتشافه أبدية والاستمتاع به أبدية من السرور »
« المستمر السامي ، قلت أني قد اعتزمت في النهاية : حقًّا لقد كان مجال الأول وهلة »

« أن من الطيش وضعف التمييز محاولة فقد شيء موثوق به في سبيل الحصول على »
« شيء غير مؤكد . لقد كنت أعلم جيداً العلم ما هي الفوائد التي يمكن استخلاصها من »
« الشرف والثروة وأنه كان يجب عليَّ أن أكف عن السعي وراء تلك الفوائد إذا أنا »
« شئت أن أقف عنايتي على السعي وراء مشروع آخر جديد : فإذا كان هذا المشروع »
« يتضمن السعادة التامة كان لا بد لي أن أعدل عن تملكها ، وبالعكس إن لم يتضمن »
« هذا المشروع تلك السعادة فلا ريب في أن تعبر اهتمامي على تلك الفوائد وتمسكي بها »
« يجعلني أفقدها كذلك . إن شيئاً إذن كانت قائمة لتعلم إذا كان في الامكان ، وبطريق »
« المصادفة ، افادة حياة جديدة ، أو على الأقل الحصول على يقين بامكان حدوث ذلك »
« بدون تغيير في نظام حياتي القديم أو في سيرها العادي . ولقد طالما حاولت ذلك عبثاً . »
« إن المصادفات التي يكثر وقوعها في الحياة ، تلك التي يعتبرها الرجال عناية أعمى »
« أنواع المتاع ، كما يتبين ذلك من جميع أعمالهم ، ترجع في الواقع إلى ثلاثة أمور : »
« الغنى والشرف ولذة الحواس . وإذن فكل أمر من تلك الأمور الثلاثة يلهي »
« العقل عن كل فكرة خاصة بأي نوع آخر من أنواع الخير . ففيما يختص باللذة »
« فان النفس تتعلق بها كأنها وجدت نوعاً من الخير تسترسل إليه . فهي إذن محرومة »
« إلى أبعد مدى ، من التفكير في أي خير آخر . ومن جهة أخرى فإن اللذة يعقبها »
« حزن عميق . وهذا الحزن إن لم يقف تيار التفكير ، فإنه يعكر صفوه ويضعفه . »
« وأما السعي وراء الشرف والثراء فإنه لا يقل تأثيراً على النفس . فأما السعي وراء الثراء »
« خصوصاً إذا كان البحث عنه لذاته ، فلأن المرء في هذه الحالة ، يجعله مكانة الخير »
« الأسمى . وأما السعي وراء الشرف فلأنه يستحوذ على العقل ويتفرد به لأنه »
« لا يمكن التخلي عن اعتباره شيئاً طيباً في حد ذاته واعتباره غاية التي تؤول »
« اليها جميع الأعمال . »

إن المرء ليشعر ، في تلك السطور الملتهبة التي تعمدنا اقتباسها من كتابه « اصلاح الادراك العقلي » ، بالحياة المكتئبة ، والنزاع الداخلي عند هذا الفيلسوف الذي يجتهد في أن يمهد لنا طريق السعادة النادر . فالمجد والشرف والمجد ولذة الحواس لا يجب أن تشغل كل

تفكير الحكيم . إن الافراط فيها مضر سيء العاقبة . على أن سبينوزا ، إن كان قد عجز بعد تفكير طويل عميق « شرًّا أكيداً في سبيل خير محقق » فإنه لا ينحاز الى أشأم « سفر الجامعة »[1] الذي يعد جميع هذه الأشياء زهواً باطلاً .

ويستطرد سبينوزا : « أما إذا سعى المرء وراءها باعتبارها وسائل ، فانها لا تتجاوز حدًّا محدوداً وإنها بالعكس ، تساعد كثيراً على بلوغ الغاية » .

ومع ذلك فإن سبينوزا يرمي إلى الحصول على تلك الطبيعة الممتازة ، ويعمل ما في وسعه كما كتب ، لكي يحصل عليها كثيرون معه ، إذ أنه كان يعد العمل على أن يعلم الكثيرون تماماً ، ما هو واضح في نظره ، جزءاً من غبطته ، بحيث يتفق إدراكهم العقلي ورغبتهم تمام الاتفاق مع إدراكه العقلي ورغبته . إن ما يهم في نظر سبينوزا هو « إمكان التفكير جديًّا » وهذا يسمح لنا أن نتطلع إلى الحب الذي يتجه إلى شيء سرمدي لا نهائي ، ويتغذى النفس بفرح طاهر « فرح لا تشوبه أية شائبة حزن أو شجو ، مرغوب فيه إلى أبعد مدى وأهل لأن يبحث عنه الإنسان بكل قواه » .

فبعد أن يمعن النظر في الصيغ المتعلقة بالادراك الحسي « المكتسب بالسمع أو بواسطة دليل اتفاقي مطاق التصرف » والادراك الحسي « المكتسب بالخبرة الوهمية » أي بالخبرة التي لم يحددها الادراك العقلي و « الادراك الحسي حيث جوهر الشيء يستنتج من شيء آخر » و « الادراك الحسي الذي يفهم فيه الشيء من مجرد جوهره أو معرفة سببه المقبل » فإن سبينوزا يلاحظ أن « الإدراك العقلي ، بقوته الطبيعية ، يتكوّن من وسائل فكرية يضاعف بواسطتها قواه لينجز أعمالاً فكرية أخرى » ومن تلك الأعمال الأخيرة يستخلص « وسائل أخرى أي القوة لاستطراد بحثه والسير فيه إلى الأمام ، ويستمر هكذا في التقدم والنجاح حتى يدرك قمة الحكمة » .

إن الفكرة الصحيحة ، كما يراها سبينوزا ، هي شيء يختلف عن الشيء الذي يسبب الفكرة : فالدائرة شيء وفكرة الدائرة شيء آخر . إن فكرة الدائرة ليست شيئاً ذا محور

---

(١) سفر من أسفار العهد القديم ، جاء في أوله ... باطل الأباطيل الكل باطل . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذي يتعبه تحت الشمس الخ

ومحيط كالدائرة ، وبالمثل فإن فكرة الجسم ليست هي الجسم بالذات . وحيث أن الشيء في ذاته يختلف عن الفكرة، فلسوف تكون في ذاتها شيئاً يمكن معرفته، أي أن الفكرة مادامت ذات جوهر صريح ، فيمكن أن تكون موضوع جوهر آخر واقعي . وهذا الجوهر الآخر الواقعي يمكن أن يصبح بدوره ، إذا اعتبر لذاته ، شيئاً حقيقيًا يمكن إدراكه ، وهكذا إلى ما لا نهاية » . إن الفكرة الصحيحة في ذاتها تستلزم اليقين فهي مرتبطة « بالجواهر الواقعية للأشياء »وتلك الجواهر يفهمها الادراك العقلي فهماً تامًا . هنا تتجلى غرابة المذهب الاسبينوزي . إن العقل، ما دام متمتعاً بالأفكار الحقة ، لم يعد خاضعاً لأي شك . وسبينوزا يبتعد ، عند هذه النقطة ، عن قواعد ديكارت . ويلح بأن الفكرة « يجب أن تتفق تمام الاتفاق مع الجوهر الصريح المناسب لها » بحيث «أن عقلنا ، لكي يستعرض أمامنا منظراً من مناظر الطبيعة ، يجب أن يفرق لنا بين جميع أفكاره وبين الفكرة التي تمثل منشأ وأصل الطبيعة بأسرها ، بحيث تكون تلك الفكرة كذلك منشأ الأفكار الأخرى » . وإذا وقع ، فيما بعد ، «أحد السفسطائيين في الشك بالنسبة للحقيقة الأولى بالذات وبالنسبة لجميع الحقائق التي نستنتجها تبعاً لمبدأ تلك الحقيقة الأولى الأساسي ، فان هذا الشخص ، كما يقول سبينوزا بغير تردد ، إما أنه يتكلم ضد ضميره ، وإما وجب علينا الاعتراف بأنه توجد طائفة من الرجال عميت بصيرتهم وعقولهم تماماً ، سواء أكان ذلك منذ ولادتهم أم أن الاعتبارات ، أي بعض العوارض الخارجية ، قد صيرتهم كذلك » .

على أنه لكي يمكن تمييز الفكرة الصحيحة الحقة ، يجب ، تبعاً لنهج سبينوزا ، تجنب الفكرة الكاذبة والفكرة الصورية والفكرة المريبة . وكذلك فيما يتعلق بوجود الله أو أي كائن عليم بجميع الأشياء « فان هذا الكائن لا يستطيع مطلقاً أن يختلق أية بدعة كاذبة » ويقول سبينوزا « انني لمجرد علمي بأنني كائن ، لا أستطيع أن اختلق بدعة كاذبة بالنسبة لوجودي أو عدم وجودي . وإنني لا أستطيع كذلك أن أتخيل فيلاً يمر من ثقب إبرة ، ولا عندما أعرف طبيعة الله ، أن أتصوره باعتباره موجوداً أو غير موجود ، ويجب التسليم بمثل ذلك فيما يتعلق بالخيال الذي تتعارض طبيعته مع الوجود . وإننا عندما نعرف طبيعة الجسم لا يمكننا أن نختلق فكرة ذيابة لا نهائية، أو عندما نعرف طبيعة الروح، فاننا لا نستطيع

كذلك أن نختلق فكرة روح مسطحة الشكل ، وإن كنا نستطيع أن نعبر بالألفاظ عن أي شيء نريد » . وعلى هذا الاعتبار « فالعقل الذي يعكف على شيء مختلق وطبيعته باطل ليفحصه ويعرفه ثم يستنتج ما يجب استنتاجه طبقاً للنظام العادل ، يجعل بطلان هذا الشيء واضحاً جليًّا » .

إن سبينوزا يقرر بأن « الفكرة الحقة » لا تميز فقط عن الفكرة الباطلة باشارة خارجة عن جوهر الشيء ولكنها تميز بصفة خاصة بإشارة داخلة في جوهر الشيء . فإذا فرضنا مثلاً أن أحد العمال قد فكر في عمل منظم ، فسيان لم يوجد هذا العمل أو أنه لن يوجد مطلقاً ، فهذا لا يمنع أن تكون الفكرة صحيحة وأن تلك الفكرة تظل كما هي سواء وجد ذلك العمل أو لم يوجد » . إن الفكرة الحقة ، في نظر سبينوزا ، هي « تلك التي تتضمن بصفة ظاهرة جوهر مبدإ لا علة لوجوده ولكنه معروف لذاته وبذاته » . أو بعبارة أخرى : أن صورة « الفكرة الحقة يجب أن تكون داخلة في تلك الفكرة حتى بدون علاقة بسواها وهي لا تسلم بأن الموضوع يعتبر كعلة ، ولكن يجب أن تكون تابعة لقوة الادراك العقلي وطبيعته بالذات » . ويلاحظ سبينوزا فوق ذلك بأننا إذا أردنا أن نصل الى الحقيقة فان الواجب يدعونا الى عدم استخلاص نتائج من تصورات مجردة لأننا نتعرض الى الخلط « بين ما هو في حدود الادراك العقلي وبين ما هو في حكم الحقيقة » . إن الخطأ « ناشيء عن عدم معرفة العناصر الأولية للطبيعة بأسرها ، وفي ذلك أن الانسان يتصرف بغير نظام ويخلط الطبيعة بالقواعد المجردة ، وحينما لو كانت صادقة ، فيشوش بذلك على نفسه ويقلب نظام الطبيعة » . إن أصل الطبيعة يرجع إلى الجوهر الذي « يجب أن يكتسب من الأشياء الثابتة الخالدة وكذلك من القوانين المنظمة التي تحدث جميع الأشياء الفردية ، وتنسق موجبها . المتبينة ، أن هذه الأشياء العجيبة المعرضة للتغيير تخضع تمام الخضوع للأشياء الثابتة ، ولا يمكن لهذه الأشياء العجيبة أن توجد أو تعرف بدون الأشياء الثابتة » .

ويتضح من ذلك أن أسمى صورة للمعرفة في نظر سبينوزا هي التي ترجع الى الأصل — خصوصاً عندما يتعلق الأمر بالأشياء العجيبة المحسوسة وليس الى التصورات المجردة — الى النوع الثالث ذلك الذي يسميه العلم الايجابي . ان هذا النوع من المعرفة « يبدأ بالتفكير

التام بالجوهر القاطع لبعض خصائص الله ويتحول الى معرفة جوهر الاشياء معرفة تامة » .
ويرى سبينوزا ان الادراك الحسي للاشياء ، في صورة الأبدية ، هو الذي يؤلف هيكل الفلسفة . وهو يقول في ذلك : « ان ادراك الاشياء في صورة من الخلود هو إذن أدراك الأشياء من حيث انها تدرك ذاتها كأنها حقيقية بفضل جوهر الله أعني ان هذه الاشياء تشمل الوجود بفضل جوهر الله. وهكذا فان روحنا ، من حيث انها تُدرِكُ ذاتها وتُدرِكُ الأشياء بنوع من الخلود ، تتمتع بمعرفة الله وتعرف أن تكون » .

ويتضح من تلك الاعتبارات ان تأليف الاسبينوزي المندمج بطبيعته بتأمل داخلي ومتمرّج بالأشياء المحسوسة والأشياء الملهمة ، يكوّن جوهراً عاملاً حيًّا فعّالاً لانه لا يخرج عن كونه رمزاً للحقيقة ومن نوعها . انه يقصي عن محيطه العلل النهائية ما دام لا يكف عن خلق ذاته بذاته أو عن التحرك داخليًّا . فحرية الفكر والعقل البارزة في سبينوزا هي التي تهيئنا الى تفهم « فلسفته » وهي الفلسفة « الصحيحة » كما تُسعدنا الى تفهم مؤلفه الرائع « الأخلاق » الذي نظّمه طبقاً للقواعد الهندسية التي طالما نوّه عنها في كتابه « إصلاح الادراك العقلي » .

٢ — الله

لقد تبين لنا ان سبينوزا اعترف لنا بصراحة تامة ، في الصفحة الأولى من كتابه « اصلاح الادراك العقلي » بعلة قلقه ، وهذا ما كان يثير فيه الرغبة في الوصول الى حياة سعيدة . ولا يمكن اكتشاف تلك الحياة إلاّ اذا أدركنا بصفة تامة ، معنى « الخلق » على صحته وخصوصاً أصل الأشياء . فعند ما نكوّن فكرة واضحة محدودة ، عن « الكون » وعند ما نصل الى أعماق الكائن ، وعند ما نستطيع بفضل جهود مضنية ، أن نميز « بأعين الروح » ذلك الكائن السرمدي اللانهائي غير المجزأ والكائن بغير كائن ، عند ما يتم لنا ذلك إذ ذاك لا يكون هناك داعٍ لوجود مثل هذا القلق . لا شك في أن الوصول الى تلك الطريق لا يخلو من عناء كبير . وقد توقع سبينوزا ذلك حيث يقول : « إذا كانت الطريق التي أوضحتها والتي تقودنا الى ذلك ، محفوفة بالمتاعب الشاقة فليس السير فيها بأدوق ، ذلك الطريق

تستلزم ذكاءً روحيًّا عظيماً وهذا الذكاء في موضوعه يعد من النظام الالهي .

وهكذا فان سبينوزا ، بعد أن يبين الطريقة لادراك الفكرة الكاملة يقدّم لنا عقب ذلك مباشرة أعمق نواحي عنه بما وراء الطبيعة وهي الناحية التي تتناول البحث في الكائن في ذاته وتتعلق بالكائن الذي يدرك كل شيء وبالله وبالكون وتتطلب أوفر قسط من التأمل العميق .

وإذن فان سبينوزا يشرح لنا معنى الكائن الذي يدرك كل شيء بما يأتي :

« إني أعني بالجوهر ما كان بذاته ويُدرك من ذاته . أي ان ادراكه لا يحتاج الى إدراك شيء آخر يجب أن يكون مكوّناً منه » .

«والله ، ذلك الكائن اللانهائي ، ليس إلاّ جوهراً مؤلفاً من خصائص لانهائية تعبر كل خاصة منها عن جوهر أبدي ولانهائي » ففي تفسير الجوهر يوجد معنى الكل ومعنى الكون الاسبينوزي .

ان الجوهر الذي يفرض في ماهيته الثبات وعدم التغير كما يفرض الخلود لهو عبارة عن طبيعة « يهوه » الأصلية . « أنا الكائن الكائن » . ولو ان سبينوزا يستعير تلك العبارة من الفلاسفة المدرسيين ، إلاّ انه في الواقع يدعم بتلك العبارة « الادراك العقلي عند قدماء العبرانيين » . ان الجوهر هو الذي يعتبر محور فلسفته بما بعد الطبيعة في نظره . انه مفرد إذ لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران من طبيعة واحدة أو من خاصة واحدة » . انه سبب في ذاته أي ان « ماهيته تشمل الوجود حتماً » أو بعبارة أخرى ان طبيعته هي أن يوجد ثم انه « لا نهائي حتماً » . وبهذا المعنى فان الله واحد فرد لأنه لا يوجد « في الطبيعة سوى جوهر واحد . وهذا الجوهر لانهائي على الاطلاق » وبمعنى أيضاً « ان كل ما هو كائن ، كائن في الله ولا يمكن لشيء بغير الله أن يوجد أو يُدرك » ان الله يعمل « بمجرد ضرورة طبيعته : انه السبب الوحيد الحر » انه سبب كائن فعّال وليس سبباً لتحويل الأشياء من شيء الى شيء . وزيادة على ذلك فان الله « ليس سبباً فعالاً في الوجود فقط ، ولكنه كذلك في ماهية الأشياء » . ففي ضرورة طبيعته الالهية « يجب أن تنشئ أشياء لا سبيل الى حصرها في أشكال لا يمكن حصرها ، اعني كل ما يمكن أن يقع تحت ادراك عقلي لانهائي » .

ان هذه البيانات المختلفة التي تميز الجوهر الفرد أو الله بطريقة قاطعة لصادرة عن تركيز عقلي عميق وتفكير طويل . ان سبينوزا لا يكتفي بالاشارة اليها أو شرحها في شكل مبادىء أو تفسير أو عروض ، فهو يقربها بدقة نادرة مستعيناً على ذلك بالمنهج الهندسي الذي تكاد تكون دقته المنطقية العارمة معصومة عن الخطأ .

ان الكل ، الذي يلقب بالله ، يفرض ، في نظر سبينوزا ، وجود حقيقة خارجية ، وتمسكاً سارماً في القدرية وفي القوة الكامنة التي لا تكف عن العمل . لم يجد فيلسوف لاهاي عناءً كبيراً في أن يحارب — في كثير من اللباقة — مختلف الأغلاط الخاصة بالادراك التام لأصل الأشياء . وهذه النقطة المختلفة ناشئة عن عدم فهم مبدإ فهماً صحيحاً تامًّا ، أو عن ذكاء محدود قليل النمو عاجز عن التوغل في ميكانيكية الكل . ان الرجال بطبيعتهم يجنحون الى الحذر والخوف وقلَّ أن يذهبوا في تفكيرهم الى مدى أبعد مما يسلم به المنطق فلا يتخطون درجة المعقول على حد تعبير ليتي بروهل ، فهم في حاجة الى كائن شديد البطش قوي العزيمة على أن يكون كائناً محسوساً شبيهاً بهم يمكن تمييز أعماله الى حدٍّ مّا . وأن يكون في مكنته أن يأتي العجائب ويصنع المعجزات وأن يظهر شفقته بكرم وسخاء وأن يقوم بأودهم ويعد حاجتهم وأن يكلأهم برعايته ويذود عنهم ويحميهم من غائلة الوحوش الكاسرة وآفات الطبيعة . وفي مستوى أرق فهؤلاء الرجال يدهشون حيال نظام الأشياء وحيال تركيب أعضائهم التي تدل بأجزائها المتناسقة على وجود صبغة عقلية للعلة الغائية . وان تلك العلة تتخذ في نظرهم شكلاً هندسيًّا متناسق الأجزاء والمقاطع مصدره الله الذي ينحصر اهتمامه في تبسيط الحياة وما تحويه من الأشياء وجعلها لطيفة مستحبة . ولكن سبينوزا يضرب ضربة قاتلة ذلك الاله الشخصي المخلوق على صورتنا والناشىء عن تصورات مخيلتنا المحمومة لأنه يرى في ذلك شبهاً بمذهب القائلين بالتجسد الالهي . انه يعلو على تلك الخيالات الوهمية والمخيلة العادية . ان ربَّ سبينوزا لا يفرض الخير ولا الشر . ان ميزته الأصلية والثابتة تنعكس في ميكانيكا دائبة الحركة وفي كل ما تحويه الطبيعة . انه يتحد بذاته مع الطبيعة . لم يعد يبقى في هذا القياس موضع للفرض أو للابتهال الى رحب رحيم أو للعلة الغائية ما دام وجوده يفرض وجود السلطة والقوة وما دام لا يكف عن العمل ، أو لخلود

الفرد ما دام الخلود مندمجاً بالجوهر الكائن بذاته الأبدي اللانهائي : ذلك الفرد لا يمكن اعتباره خالداً إلاّ من حيث انه يؤلف عنصراً متحداً مع الجوهر ، ما دامت ماهية هذا الفرد تجيء من قوة الادراك اللانهائي أو القوة المدركة في الله وهي ضرب من الفكرة لا حدّ له ولا غاية ، كما ان جسمه يجيء من الامتداد بواسطة نواميس الحركة .

وقد كتب سبينوزا : « لا بدّ أن جميع الأشياء قد تسلسلت من طبيعة الله التي يفرض فيها بأنها موهوبة ، وانها قد تعينت بالضرورة التي لطبيعة الله الى الوجود وإحداث بعض الآثار بطريقة خاصة » .

أو بعبارة أخرى كما يكتب الى أولدنبرغ : « انني لا أخضع الله الى أي نقد أو أوجه له أي طعن ولكنني أدرك الأشياء باعتبار انها مرغمة على السير وراء طبيعة الله » .

ان سبينوزا يستخلص معنى الحياة من طبيعة الله . فهي « القوة التي بموجبها تستمر الأشياء في المحافظة على كيانها » وتلك القوة ملازمة لله حيث انها « ليست إلاّ ماهيته » . وبما أن « تلك القوة تمتاز عن الأشياء بالذات ، فاننا نقول بكل وضوح ان الأشياء بذاتها تعيش وتحيا » .

ولكن هل الأشياء مخلوقة ؟ ان سبينوزا يتبع في كلامه عن هذه النقطة نفس مبدأ خلود الله ، فيرى ان الخلق ، عملية لا تشترك فيها أسباب غير العلة الفعالة ، أي ان الشيء المخلوق هو الشيء الذي لا يفرض لوجوده وجود شيء قبله غير الله . وهو يكتب بهذا المعنى الى أولدنبورغ : « ان الرجال لم يخلقوا ولكنهم قد تناسلوا وان أجسامهم كانت توجد قبل ذلك وان كانت مصنوعة على أشكال غير هذه » . جميع الأشياء فيما عدا الله ، كائنة دائماً بواسطة قوة الله أو جوهره » . وجاء في كتاب « الأخلاق » : توجد في الله منذ الأزل فكرة عن كل جسم بشري .

وهكذا فان وحدة الجوهر تفرض فهماً وإدراكاً عامّاً ، فهي العنصر الذي يتحد في كل صفة . ان نظام الأفكار وتقاربها هو نفس نظام الأشياء وتقاربها » . غير ان الذي تأمله معاصرو سبينوزا ، فيما كتبه عن وحدة الجوهر ، هو قوله بأن « الامتداد هو صفة الله » . أو بعبارة أخرى ما يقوله من أن الله قابل لأن يندمج مع جسم وبذلك يكون قابلاً للتجزئة

والانفعال . ولكن سبينوزا يلاحظ على ذلك انه « إذا أريد فحص المسألة رؤي بأن جميع هذه النتائج المستحيلة التي يريدون أن يستنتجوا من وراثها أن الجوهر الممتد نهائي لا يختلف مطلقاً مما يظن بأنه كمية لانهائية ولكن مما يظن بأن تلك الكمية اللانهائية قابلة للقياس ومؤلفة من أجزاء نهائية ، فلا يمكن إذن أن يستنتج من هذه النتائج المستحيلة إلاّ أن الكمية اللانهائية ليست قابلة للقياس ولا يمكن أن تتألف من أجزاء نهائية » . ان « الجوهر الجسمي، من حيث هو جوهر، لا يمكن أن يجزأ » . وبعبارة أخرى ، يقول سبينوزا « إذا انعدم جزء واحد من المادة فكل الامتداد لا بد أن يتلاشى » . في نظره، المادة وحدة تذكر بالالوهية عند العبرانيين ، تلك الالوهية الموضحة « بالجوهر » حيث المادة والادراك العقلي تصيران الى عنصر واحد . ان المادة لا تفترض ، من تلك الناحية ، الاّ نوعاً من نظام روحاني ، وذلك يقرر سبينوزا بأن « الامتداد اللانهائي والفكرة .. مجتمعان مع خاصيات أخرى لانهائية ليست الاّ أعراضاً للكائن الفرد الأبدي اللانهائي الموجود بذاته . واننا نؤلف من كل ذلك كما تقدم ، فرداً ووحدة ، وتلك الوحدة ليس في الامكان تصور شيء ما بدونها » ثم يضيف ذلك الشرح الواضح : « ان الدائرة الكائنة في الطبيعة وفكرة الدائرة الكائنة أيضاً في الله، هي شيء واحد بعينه يفسر بواسطة خصائص مختلفة ، وهكذا سواء أكنا ندرك الطبيعة تحت صفة الامتداد أو تحت صفة الفكرة أو تحت أية صفة أخرى ، فاننا نجد نظاماً واحداً بعينه أو نفس اقتراح الاسباب بعينه، أو بعبارة أوضح فاننا نجد أن نفس الاشياء تتعاقب . فاذا كنت قد قلت ان الله هو السبب في فكرة ، في فكرة الدائرة مثلاً باعتبار انه فقط شيء ممتد ، فان دافعي الوحيد الى مثل هذا التعبير هو أنه لا يمكن ادراك الكائن الحقيقي لفكرة الدائرة الاّ بواسطة صيغة أخرى في التفكير تعتبر بمثابة السبب القريب لتلك الصيغة وانه لا يمكن ادراك تلك الصيغة الجديدة بدورها الاّ بواسطة صيغة أخرى كذلك وهكذا حتى اللانهائي ، بحيث انه طالما اعتبرت الاشياء صيغاً للتفكير صار من الواجب علينا أن نفسر نظام الطبيعة بأسرها أي امتزاج العلل بصفة الفكرة وحدها ، واذا اعتبرت هذه الاشياء صيغاً للامتداد فان نظام الطبيعة بأسرها يجب أن يفسر كذلك بصفة الامتداد

—٥—

وحدها وهكذا أعني للصفات الأخرى . ولذلك فان الله بصفته مكوّناً من صفات لا نهاية لها هو في الحقيقة السبب في كيان الأشياء كلها كما أنها كائنة بذاتها » .

والى جانب هاتين الصفتين ، الفكرة والامتداد ، اللتين يميزان بوضوح مذهب وحدة الوجود عند سبينوزا ، يجب أن يضاف مظهر آخر له أهمية عظيمة في فكرته وهو الخاص بالطبيعة الفعالة الخالقة والطبيعة المنفعلة المخلوقة . أما الأولى فانه يعني بها « ما هو كائن في ذاته ويدرك بذاته أو بعبارة أخرى صفات الجوهر التي تدل على ماهية أبدية لانهائية أو الله طالما انه معتبر بمثابة سبب حر » . والطبيعة المنفعلة المخلوقة فان سبينوزا يعني « كل ما هو ناشئ من ضرورة طبيعة الله أو بعبارة أخرى من طبيعة كل صفة من صفاته أو أيضاً جميع صيغ صفات الله ما دامت تعتبر كأشياء موجودة في الله ولا يمكنها ، بدون الله ، أن توجد أو تدرك » .

وهكذا فان الادراك العقلي أو الفعل ، سواء أكان محدوداً أو لانهائياً ، وكذلك الارادة والرغبة والحب وغيرها ، يجب أن ترجع الى الطبيعة المنفعلة المخلوقة لا الى الطبيعة الفعالة الخالقة ، وبعبارة أخرى فان الطبيعة الخالقة هي خلاصة جوهر « الكل » أو « الكائن » الأسمى وما ينشأ عنه .

وبهذا المعنى فان ما ينتج من الطبيعة المنفعلة المخلوقة ، مهما كان فعالاً ، هو في الحقيقة منفعلاً بالنسبة للعنصر الأساسي للطبيعة الفعالة الخالقة التي تحتم القوة الفعالة البحتة . ان الجوهر يتساوى هنا مع الطبيعة . ان الطبيعة المخلوقة ، على عكس الطبيعة الخالقة ، هي التي ترتبط بالطبيعة المنفعلة العامة أو الأعراض أو المخلوقات (ما تحتوي عليه الطبيعة من أشجار وملء وكل الأشكال الخارجية لكائناتها) التي « تتعلق رأساً بالله أو التي خلقت بواسطته في الحال » والتي « لا تعرف منها أكثر من اثنين وهما : الحركة في الطبيعة والادراك العقلي في الأشياء المفكرة » ، وكلاهما « يظل ثابتاً لا يتغير وأبدياً » . ولهذا السبب كتب سبينوزا الى أولدنبورغ ان « الله هو السبب الفعال لجميع الأشياء » .

وهكذا نرى أن الغرض من تلك الفروقات المختلفة هو أن تعطينا فكرة واضحة عن أدق نقطة في علم ما بعد الطبيعة عند سبينوزا . إن جميع الأجزاء الخاصة بمبدأ ، مرتبطة

بعضها ببعض . ولا يمكن فهم الطبيعة البشرية في مختلف علاقاتها بالكائنات دون الوقوف سلفاً على أصل الأشياء و « الوحدة السامية » التي تستلزم وجود وفرة العدد أي وجود الرحم الغزير النسل . إن الله ، كما يراه سبينوزا هو ذات «النظام الثابت الذي لا يتغير للطبيعة أو بعبارة أخرى ، تسلسل الأشياء الطبيعية وتناسقها » . انه « لا يوجد أي سبب ، خارج عن الله أو في الله ، يدفعه الى العمل إن لم يكن كمال طبيعته الذاتية » . ولم يجد سبينوزا أي عناء ، وقد بدأ من الذات الالهية أو من ذلك « الكل » في أن يبين لنا مما تتألف منه طبيعة النفس في مختلف ظواهرها العادية .

٣ - الطبيعة البشرية

بعد أن خبر سبينوزا الكائن في ذاته ولمس بأصبعه سر كيانه فانه ينزل عن القمة التي كان واقفاً عليها ، ويترك لحظة معبد الجمال والنور الساطع ، حيث يمكن لعين الانسان أن تتأثر وتذهل ، لكي ينظر عن كثب فيما اذا كانت جميع الأشياء تتناسق وترتبط ، وإذا كانت الأجزاء توازي الكل . وفيما اذا كانت الطبيعة المنفعلة المخلوقة تتولد فعلاً من الطبيعة الفعالة الخالقة . وبالاجمال فيما اذا كانت الالوهية عامة شاملة لجميع الكائنات وموجودة في كل مكان على حد ما كان يراها هو بنظرته العميقة النادرة . وبدأ إذن بدراسة الكائن المحسوس الذي يعد أتم الكائنات بالنسبة للكائنات الأخرى ، وهو الرجل الذي هو قطعة من الله ، والذي هو أقرب الكائنات من الطبيعة الالهية من ناحية إدراكه العقلي . وفي النهاية قال سبينوزا : « إن الرجل يفكر » فما هي الفكرة ؟ إن الفكرة « صفة من صفات الله أو بعبارة أخرى ان الله شيء مفكر » . انها « تعبر عن ماهية جوهر الله الأبدي اللانهائي » . « إن للنفس البشرية معرفة تامة لماهية جوهر الله الأبدي اللانهائي » . ولكن لا يجب أن ننسى أن الرجل جسماً أو جسماً . فهلاً تكون هناك ذاتان متباينتان ، الروح والجسد ، ضليعتان بالصفتين الفكرة والامتداد اللتين تحدثنا عنهما فيما سبق ؟ لقد رأينا كيف أن سبينوزا يذلل الصعوبة بشأن الامتداد . وهنا أيضاً سيمدد فيلسوف لاهاي الاتساس الخاص بالجسم . فهو يقول عنه « انه صيغة تعبر عن ماهية جوهر الله » . حيث أن ماهية الجوهر هذه ترتبط « بالشيء الممتد بكيفية مؤكدة ومحددة » وبتعبير آخر ، « ان الغرض من الفكرة التي تؤلف النفس البشرية هو الجسم أعني نوع من صيغ الامتداد الكائن بالفعل وليس شيئاً آخر » .

إن النفس البشرية صفة لله لأن الله شيء مفكر ، والجسم البشري هو الله لأن الله شيء ممتد . وزيادة على ذلك فان المعرفة أو الفكرة في النفس البشرية ملزومة لها ، انها تعبير « في

الله بنفس الطريقة وتتعلق بالله بنفس طريقة الفكرة أو معرفة الجسم البشري » .

وهكذا فان الطبيعة البشرية تؤول إلى ماهية جوهر المجموع بواسطة الأعراض التي ترتبط رأساً بصفات الله . لا حاجة في علم ما بعد الطبيعة عند سبينوزا إلى إبراز المادة والعقل إذ أنه لا يعقل أن الفكرة ترتبط بجزء من المادة ، أو أن النفس ، كما يريد ديكارت ، تكون مرتبطة بالغدة الصنوبرية . ان الطبيعة البشرية لا تحتمل دوجاً غير مرتبط وغير معين ، فهي لا تقوم إلاّ على وحدة داخلية . انه لا توجد في الرجل قوتان عاملتان مستقلتان . إن النفس تبدأ وتنتهي مع الجسم وعلتها قائمة بعيداً عنها ، في أعراض أخرى محدودة للفكرة مطابقة لاعراض الامتداد التي هي علل الجسم . إن غرض الفكرة التي تتألف منها النفس البشرية هو الجسم أعني عرضاً من أعراض الامتداد الموجود في الفعل » . وسبينوزا يوضح ذلك بعبارات أوضح : « أما فيما يتعلق بالنفس البشرية فإنني أعتقد أيضاً بأنها جزء من الطبيعة : أعتقد حقاً أنه توجد في الطبيعة قوة تفكير لانهائية ، وان تلك القوة تحوي ظاهرياً في لانهائيتها الطبيعة بأسرها حيث أن الأفكار الخاصة التي تؤلفها ترتبط بموضوعها بنفس الكيفية التي ترتبط بها أجزاء الطبيعة التي كونتها تلك القوة المفكرة — . والى جانب ذلك فإنني أعتبر النفس البشرية كأنها تعي تلك القوة التفكيرية ليس باعتبارها لانهائية وتدرك الطبيعة كلها ، ولكن باعتبار أنها تدرك فقط شيئاً نهائياً هو الجسم البشري : هكذا أدرك النفس البشرية كأنها جزء من الادراك اللانهائي » .

ومع ذلك كله فإن سبينوزا يضيف ، فيما يتعلق باتحاد النفس بالجسم ، « انه ليس في مقدور أحد أن يكون فكرة ثانية أعني واضحة » دون أن يعرف قبل ذلك طبيعة جسمنا . فلهذا الجسم ملامح مشتركة عند أشخاص آخرين يحبون ويعيشون جميعاً بدرجات مختلفة . وإذن « فكرة كل شيء ، أيّا كان هذا الشيء ، كائنة في الله ، والله هو سبب تلك الفكرة بنفس الكيفية التي هو السبب فيها في فكرة الجسم البشري . وهكذا كل ما قلناه عن الجسم البشري يجب حتماً أن يقال هنا عن فكرة كل شيء مهما كان » . وعلى هذا الاعتبار بدت الطبيعة بأسرها ، في نظر الفيلسوف ، كأنها فرد واحد « تتغير أجزاؤه ، أعني جميع الأجسام التي تكونه ، إلى تغيرات لانهائية دون أن يحدث أي تغيير في الفرد بأكمله » .

ونلاحظ أيضاً أن جميع خصائص النفس تتفرّع من ذلك التفسير : « النفس هي فكرة الجسم » والفكرة ، من حيث أنها عرض من التفكير [طبيعة الفكرة لا تشمل بأي حال الامتداد] لا تتألف من « رقم صامت على لوحة ». إن الفكرة ، وهي عرض من صفة إلهية ؛ أي خارجة عن النفس ، تؤيد من نفسها وجود موضوعها ، « وتعززه ما دام هذا الوجود لم يستبعد بوجود فكرة أخرى : وليس الوضع هو الذي يجب أن يفسر ولكن هو النفي ، وهذا النفي يفسر نفسه بما فيه من تأكيد لما السبب الذي أدى إلى استبعاد الفكرة المنفية . وإذن ففكرة الجسم ليس النقيض هذا الجسم ولكنها وضع وتأكيد وجوده في الفكرة . ثم إن هذه الفكرة مكوّنة أيضاً كتكوين الجسم بعينه ، وفردية النفس ، مع اختلاف الادراك الحسي الذي تشتمل عليه تلك الفردية ، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن طبيعة الجسم »

ومن جهة أخرى ، النفس باعتبار أنها عرض نهائي ، فإن فكرتها نحو ذاتها وفكرتها نحو الجسم وفكرتها نحو الجسم الخارجي كلها أفكار ثابته لا تتغير . أعني أن النفس تجهل العلة أو السبب في هذه الأفكار . أنها « لا تعرف الجسم البشري بعينه ، ولا تعلم بأنه موجود الاّ من أفكار العواطف التي يتأثر بها الجسم » وبعبارة أخرى ، ان النفس تعرف الأجسام الظاهرة ما دامت تحدث تأثيراً على جسمها هي بالذات ، وهكذا يصير مفهوماً بأن الإدراك الحسي لهذه الأجسام الظاهرة موقوف على طبيعة جسمنا . إن الذاكرة أو التصور تنشأ عن استمرار التأثير . ويقول سبينوزا « اذا تصادف أن يتأثر الجسم البشري مرة بجسمين أو بأجسام كثيرة في وقتٍ واحد ، فبمجرد ما تتصوّر فيما بعد أحد هذه الأجسام فانها ستذكر الأجسام الأخرى في الحال » .

ولكن الرجل ، في تلك الحالة ، بصفته كائناً نهائيًّا وبصفته يخضع للمدة ، فانه لا يستطيع أن يفهم مجرى الطبيعة التي يخضع لها ، ولا أن يبتغي الأغراض النهائية ، لأن تلك الأغراض في ذاتها مبهمة . « اننا لا نستطيع أن نعرف عن مدة الأشياء الخاصة الخارجة عنا إلاّ أنها كثيرة التغيير غير ثابتة » .

ولذلك فان إرادة الرجل في نظر سبينوزا محدودة . وهو يقول : « لا توجد في النفس أية إرادة مطلقة أو حرة » . إن النفس مسيرة إلى إرادة هذا أو ذاك ، بسبب ، وهذا

السبب مُسَيَّر أيضاً بسبب آخر، وهذا السبب الآخر مسيَّر بدوره بآخر وهكذا إلى اللانهاية».
وبعبارة أخرى، إن النفس لا تفرض أي حل أعني «أي تأكيد ولا أي نفي خارج عن التأكيد أو النفي الذي تحتوي عليه الفكرة بإعتبار أنها فكرة». فإذا كانت الارادة، باعتبار أنها تفرض استمرار الفكرة في الضمير، هي الرغبة التي هي «ماهية الرجل بعينها» فإن تلك الرغبة ليست في ذاتها وسيلة وجدانية. ليس من الضروري للغرائز، التي تتمدد في جهود مبهمة متعددة، أن تفعل بواسطة الرغبة. وكذلك فإن الضرورة، التي تدير جميع الكائنات والتي تتحد بالطبيعة الإلهية، لا تمنح أية حرية للرجل. على أن سبينوزا يسلّم بالرجل الحر ولكن بمعنى أضيق، عندما «يعيش الرجل طبقاً لأوامر العقل»، أو «أن يكون مسيراً بواسطة العقل وحده». وإذن، ذلك العقل يحتم، في نظر سبينوزا، المعرفة الثالثة، وهي المعرفة التي تسمح «بمعرفة الله»، أو «الفضيلة السامية»، وسهولة فهم النفس بالنسبة لذاتها. إن الخطأ، بحسب هذا المذهب، لا يمكن أن يعزى إلاّ لعدم وجود الفكرة الحقة، فهي فكرة متغيرة غير ثابتة، ما دامت لم تستبعد ولم تُستف بواسطة فكرة ثابتة غير متغيرة. والحقيقة، كما يقول سبينوزا، «إن الرجال يفكرون في نفس الشيء أو يفكرون في أشياء مختلفة، بحيث أن ما يُظن بأنه خطأ أو ابهام في الغير، ليس كذلك». إن الخطأ من مستلزمات الكائن البشري، وهو بغير ما شك يشبه الضرورة التي تعتبر من جهتها من ضروريات النظام الطبيعي. ولذلك فهو لا يحكم على الخطأ عند الرجل ولا يقبل أن يعزى هذا الخطأ، كما يريده ديكارت، إلى الإرادة البشرية. إنه يبين أن الطبيعة البشرية قد جعلت هكذا، وانها آلية أو روحانية تقع تارةً في الخطأ وتارةً تبحث عن الحقيقة. وهكذا فإن معرفة إرادة حرة تعمل طبقاً لغاية، ومعرفة الخير والشر، ليست إلاّ وهمية غامضة في هذا المذهب الذي تنفي طبيعته الجوهرية وكليته كل فرض أو احتمال. لهذا السبب يبدو سبينوزا حليماً نحو بعض الأخطاء المثيرة، التي لا تغتفر للرجل إذ أنه بصفته عاقلاً يكتفي بأن يلاحظ ويشاهد الناحية المذمومة من شهوة الفرد سواء أكانت تلك الشهوة سارّة أم ضارّة.

إن تلك الشهرة تظهر في التحليل الدقيق الذي يجريه سبينوزا — ذلك العالم الفذّ فيما وراء الطبيعة وعلم النفس، الماهر في استكشاف دخائل النفس وخلجاتها — سواء أكانت عادية

وقيقة أو عاصفة ثائرة — تلك الشهوة إذن تظهر في أشكال متنوّعة وغيرة ، تساعد على تكوين فكرة ثابتة جلية عن طبيعة الرجل الغريبة — إن هذا الرجل لا يجب اعتباره في الطبيعة بمثابة « دولة في وسط دولة » ، إنه غير خاضع للتصرف المطلق ، كما توهمه ديكارت . إن فضائله ورذائله مرتبة بقوّة الطبيعة المشتركة . ولهذا السبب لا يتردّد سبينوزا في معالجة عواطف الرجال وأعمالهم كما يعالج المهندسون المسائل الهندسية ، أي بتحكيم العقل بكل عدة ، كما لو كانت تلك العواطف والأعمال خطوطاً ومسطحات وحجاد . إن الطبيعة هي بعينها في كل مكان ، « وفضيلتها ومقدرتها العملية واحدة ، وهي بعينها في كل مكان ، أي أن الشرائع وقوانين الطبيعة ، التي يقع كل شيء ويتحول من شكل لآخر ، هي واحدة دائماً وفي كل مكان ، ثم إن معرفة الطريق القويم لطبيعة الأشياء ، أيّا كانت يجب أن يكون أيضاً واحداً وأن يكون هو بعينه : وهذا أيضاً بواسطة شرائع الطبيعة وقوانينها العامة » . واذن « فعاطفة الحقد والغضب والحسد وغيرها ، المعتبرة في ذاتها ، تخضع كبقية الأشياء الطبيعية ، لنفس ضرورة الطبيعة ونفس فضيلتها » .

وإذ ذاك فان سبينوزا ، بعد تفسير السبب الثابت الذي لا يتغير « وهو الذي يمكن فهم تأثيره أو معلوله بوضوح وجلاء بذاته » والسبب غير الثابت القابل للتغيير أو الجزئي « وهو الذي لا يمكن فهم تأثيره أو معلوله بذاته » يشرح عامية الحب والحقد والفرح والحزن والغضب والشفقة والضراعة وغيرها . إن النفس البشرية خاضعة « عند ما تكون غير عاملة إلى تغيرات كبيرة فتارة ترتفع الى درجة كبيرة من الكمال وطوراً الى أقل منها ، وتلك الشهوات تفسر لنا شعور السرور والحزن » إن السرور ليس « الاّ شهوة تصل النفس بواسطته الى كمال أسمى » . والحزن « شهوة تمر بواسطة النفس الى كمال أقل » . وفي وسط هذا النظام الفكري ، فإن الرغبة التي « تتولد من الحزن او السرور أو الحقد أو الحب تسمو بقدر سموّ الشعور » .

ولكن الكائن ، من حيث أنه يقترب أو يبتعد من القوة الإلهية ، « فانه يرمي الى الاستمرار في كيانه . ولا يمكن أن يتحطم الاّ بواسطة كائن آخر . إن النبات يتألف من ارتباطه المباشر . وهذا الارتباط بذاته يولد في أولى المظاهر غير العاملة كالجوع في الجسم

وهو ماهية الرجل ، وفي النفس الرغبة وهي ليست الا تأييداً وميلاً ملازماً للفكرة التي تعد بدورها وضماً للذات . وبهذا المعنى، فان المعلولات تؤثر على جسمنا سواء لتسهيل المجهود المستمرّة في الكائن ، سواء « لتتكد عليه » : ومن ذلك ينتج شعوران « السرور » وهو فكرة (غير كاملة) زيادة الكمال في الجسم ، و « الحزن » وهو فكرة نقص كماله : إن « الحب » يتولد عند ما تضاف إلى فكرة السرور فكرة (غير كاملة) السبب الذي يظن أنه أوجد تلك الفكرة ، و « الحقد ينولد في نفس الظروف عند ما يقترن الحزن بفكر السبب الذي أوجده » .

إن الحب والحقد يمكن أن يكونا موضع « تقلب » . إن الحقد الذي نشعر به نحو فرد مثلاً ، قابل لأن يتحول نحو أمة بأسرها . إن شرائع المخيلة التي توحي الينا صور الأشياء تحدث نفس المشاعر التي توجدها تلك الأشياء بعينها . ومن هذا ينشأ الأمل والخوف اللذان على أساس السرور والحزن . والأمل والخوف يصبحان بدورهما اطمئناناً ويأساً إذا كنا نشك في السرور والحزن في مستقبل الأيام ، ومن هذا أيضاً ينشأ الارتياح والأسف . إن فعل المخيلة يمتد أيضاً إلى أمثالنا فإننا نشعر نحوهم بعطف أو شفقة ، « وهو الحزن الذي يشعرنا به حزن أمثالنا ، أو بالمجاراة عند تمثلنا صورة الرغبة الموجودة عند أحد أمثالنا على الشعور بنفس تلك الرغبة » . ثم إذا نحن قنا بمجهود « لتصبح الكائنات المماثلة لنا هيبة بنا ، أي لكي يشاطرونا أحقادنا وحبنا » ، فرغبة الطمع هذه التي تصادف عقبات هي السبب في عدد كبير من الاحتقاد تتصبح حسداً بعامل سذة المخيلة التي تجعلنا نحب الشيء الذي يحبه أمثالنا ، ولكن الحقد الذي ازداد « بتأثير حقد متبادل » فيمكن « استئصاله بواسطة الحب » . وإلاّ كما يقول سبينوزا « فإن الحقد الذي ذلله الحب تماماً يتحوّل الى حب ، فلهذا السبب يصير الحب أعظم مما يكون عليه لو لم يتقدمه الحقد » .

هكذا نرى كيف يدور دولاب العواطف المضيفة التي تفرض الاستعباد عند الرجل . إن سبينوزا إذ يتغلغل عقلياً في الطبيعة البشرية بدقة ومهارة نادرة ، يكشف عن خيبة النفس ، وهي الكائن النهائي الذي يوجد تحت رحمة اللانهائي وتحت سلطة تفوق الطبيعة البشرية ، وتحت رحمة الزعزعات ، إذا صحّ هذا القول ، الذاتية في الطبيعة ، تعبث أعاصير الأهواء ، فيكره ما كان يحب ، ويحب ما كان يكره ، تحت تأثير المعلولات الخارجية . وبالاجمال فان عواطف هذا الكائن النهائي محدودة وخاضعة لسير الطبيعة العام .

٤ ـ الحياة الحرة

ان الرجل مع ذلك يتجه ، الى حدٍّ ما ، من الضغط أو من تقييد الاختيار الصارم من جانب الآلهة « الطبيعة » . ان له أفكاراً ثابتة لا تتغير ، وإذ ذاك فهو يستطيع أن يعمل وألاّ يكون عبداً لشهوته ، وأن يسلك الطريق الوعرة التي تؤدي الى قمة السعادة ، وإلى الهناءة الداخلية ، والى معرفة الله معرفة دقيقة ، والى الفضيلة . هنا يفيض علينا سبينوزا من رحيق الحياة ويشركنا في الحب العظيم وأسرار الكمال والنور . ان تأملات هذا المفكر العبقري ، الذي طالما سهر الليالي وتألم بهدوء وبدون علم أصدقائه والمعجبين به ، تتجلى في عظمتها وغنى مواردها ، كالسحر في الفن ، عند ما يطرق في النهاية الحديث عن الجزء الخاص بالخلود حيث يتضح جليًّا أنه يحاول جهده ليشركنا مع الكائن الأسمى ، وان يلقننا التصوُّف ، والروحانية البحتة التي يقوم عليها مؤلفه « حب الله » .

فلننظر كيف يدرك الرجل تلك السعادة . يجب أن يكون « هذا النفس المفكر » كما يقول باسكال ، حرًّا ، وبعبارة أصح ، أن يكون دليله العقل بحسب المعنى الاسبينوزي ، أعني ثابتاً لا يتغير . إن سبينوزا يقول لنا إن الرجل الحر الذي يتبع ارشاد العقل « لا يعمل للحديمة تماماً ولكنه يعمل دائماً بحسن نية » . ويضيف إلى ذلك قوله إن الرجل الحر « الذي يقوده العقل هو أكثر حرية في المدينة التي يعيش فيها طبقاً للناموس المشترك منه في العزلة حيث لا يخضع إلاّ لنفسه » . إن الرجل الحر عند ما يعرف نفسه ويعرف « عواطفه بوضوح وجلاء » فإنه يحب الله ، ويزداد هذا الحب بقدر ازدياد معرفته لنفسه ومعرفته لعواطفه » . إن « هذا الحب لله يجب أن يحل في أكبر مكان من النفس » . ولكن ليس لله « شهوات وهو لا يشعر بأية عاطفة سرور أو حزن » . وهكذا فإن سبينوزا يستبعد كل مظهر من مظاهر التجسد الالهي ويرجع بنا إلى محوره الأساسي الذي يتعلق من ناحية ما بعد الطبيعة ، بالفكر وبالمادة و « بما هو في ذاته ومُدرك في ذاته » ، وإنه لذلك لا يمكنه « الحقد

على الله » فالذي « يحب الله لا يمكن أن يأتي بمجهود ليجعل الله على حبه » . إن الحب نحو الله « لا يمكن أن يفسد لا بعاطفة حسد ولا بعاطفة غيرة وإنه ليزداد نموًا واشتعالاً بقدر ازدياد عدد الرجال المرتبطين بالله بنفس رابط الحب » . فهذا الحب نحو الله « الذي يعتبر عناية سرور مصحوب بفكرة الله » ينشأ عن معرفة ثابتة غير متغيرة لعاطفتنا، ويستلزم كمال شخصنا وسلطته. وبعبارة أخرى إنه منحدر من النفس التي ـ بواسطة الجسم والأشياء التي لها نوع من الأبدية ـ « لها علم بالله وتعرف بأنها في الله وتدرك نفسها بالله » إن الأبدية هي ماهية الله حيث إنها تشمل الوجود الضروري . في هذه الظروف يكون النوع الثالث من المعرفة ، ذلك النوع الذي يستطيع وحده أن يدفعنا إلى حب الله العقلي ، تابعاً للنفس التي تستلزم الأبدية بماهيتها . في هذه الحالة « يكون حب الله الروحاني » الذي يتولد من النوع الثالث للمعرفة أبديًا » . وبعبارة أخرى يكتب سبينوزا :

« إن حب النفس الروحاني لله هو حب الله بعينه وهو ذلك الحب الذي يحب به الله نفسه ليس بصفة كونه لانهائيًا ولكن باعتبار أنه يمكن تفسيره بماهية النفس البشرية المعتبرة من الوجهة الأبدية ، أي إن حب النفس الروحاني لله هو جزء من الحب اللانهائي الذي يحب الله به نفسه » .

ويستنتج سبينوزا من ذلك :

« إنه لا يوجد شيء في الطبيعة يتعارض مع ذلك الحب الروحاني ، وبتعبير آخر ، لا يوجد شيء يمكن أن يحطمه . »

وهكذا ، وبفضل ذلك الاعتبار للأشياء من الوجهة الأبدية ، يجتاز سبينوزا جميع العقبات والموانع رويداً رويداً، ويحل جميع الصعاب ويسير بنا بتقدم محسوس مطرد ، إلى النعيم الدائم، وهذا النعيم هو في ذاته الفضيلة ، والطمأنينة، وهو ذلك السرور الذي ينشأ عن مشاهدة تفوذنا وسلطتنا في العمل ، وهي التي « تتألف من حب الله » ، الذي يعتبر النوع الثالث من المعرفة الذي يستلزم الأبدية متبعه .

إن فكرة سبينوزا تتجلى في وقت واحد ، كما أسلفنا ، تحت مظهرين رئيسيين : متافيزيقي وأخلاقي . إن القلق الذي يشعر به الانسان لا يمكن تبديده إلا إذا عرف أصل

الأشياء ومنشأها . ومتى توصل الى ماهية الأبدية وكيفية دورانها ومكانتها ، فما الذي يتبقى للرجل الذي يكون حلقة في تلك الشبكة العظيمة التي تتألف منها الطبيعة ، سوى بضع شرائع حكيمة لا مناص منها لقيادة حياته ؟ ستكون الأخلاق ، وهي متوعرة في طبائع إسرائيل وعاداته ، أسمى ما تتوّج به أعمق الدراسات النظرية وأكثرها تجرداً فيما يتعلق بما بعد الطبيعة . إن سبينوزا لا يهمل الوجهة العملية من الحياة اليومية . إنه يحب الحياة وهو الذي كتب :

« إن الرجل الحر لا يفكر في شيء ما وأقل الأشياء التي يفكر فيها هو الموت ، وحكمته لا تأمل لا في الموت ولكن في الحياة »

وهكذا فإنه يعمل على غرار الذين ، من أبناء جنسه ، قد تأملوا في الحياة وفي حب متبادل بين الرجال . ويقول سبينوزا :

« إن الرجال الأحرار وحدهم هم الذين يعترفون لبعضهم بالجميل » .

تلك هي عظمة وعمق تلك الفلسفة التي يخال أنها تتحدّى الزمن بحداتها المطردة وبحثها بإخلاص عن الحقيقة . إن سبينوزا يقول لنا إن هذا المذهب مفيد للحياة الاجتماعية لأنه يعلم ألاّ « يحقد المرء على أحد ، ولا يحتقر أحداً ، ولا يسخر من أحد ، ولا يغضب على أحد ، ولا يحسد أحداً . ويعلم أيضاً كل امرء أن يكون مرتاحاً إلى ما لديه وأن يساعد جاره لا بدافع الشفقة النسائية أو التحيز أو التطير ، ولكن بدافع العقل وحده » . لا يمكن أن يتصوّر الانسان فكرة أنفع وأرحم من تلك الفكرة فهي تجعل الرجل سعيداً باتئاد وراحة النفس . إنه لا يستلزم العزلة ، ولكن فضيلة « التقوى » التي ترمي إلى إقصاء المنازعات بفضل تصرّف معقول وحلب السلم إلى الرجال . إن الحكيم لا يتنكف الحرص ، والذي « يعمل ما استطاع على تلافي احسان » الجهال ، ويتلافى الأخطار ، يصل بتلك الطريقة إلى الهدوء والطمأنينة ، وإلى حياة التأمل الهنيئة السعيدة ، وإلى تلك الغبطة التي تميز حب الله الروحاني .

٥ - حضارة المذهب الاسبينوزي وتأثيره

لقد وقفنا مما تقدّم على الصفات المميزة لتلك الفكرة الفلسفية التي جمعت في أغراضها الكون بأسره أو الكل . وقد لاحظنا كذلك أن فلسفة سبينوزا ليست غريبة عن شجون الحياة اليومية الكثيرة التي تشغل الانسانية . إنها ترمي ، تحت مختلف مظاهرها المتافيزيقية والأخلاقية والنقدية إلى إبعاد حلول موقتة وإرشاد من أزعجهم القلق إلى حد الإعياء ، ومن يتألمون في داخليتهم وهم ساكتون . إن سبينوزا إذ يتوجه بحديثه في مؤلفه الشهير « رسالة في السياسة » إلى عطف « القارىء الفيلسوف » لا يخشى أن يحطم من أساسها العقائد التي لا تتفق مع النور الطبيعي ، ولا مع ذكاء الأحياء الوقاد . إن التطير هو الذي يصعب استئصاله من نفوس الدهماء . ولقد كان هذا التطير السبب الأوحد « في كثير من الاضطرابات والحروب الطاحنة » . وكان سبينوزا لا يتردّد في نقد الكتب المقدسة نقداً شديداً عند ما يتناولها بالفحص الدقيق وحرية الرأي والتفكير بغير ما تحير أو تحايل . وهكذا كان يبدّد كثيراً من الأغلاط والأخطاء . « ليس للمعرفة الملهمة غاية غير الطاعة » . ثم إنه يشهر بالمشيع السافل والطامع عند من يدّعون نشر الايمان بالله وهو يقول :

« لقد رأيت مراراً عدّة ، رجالاً يفاخرون بتعاليم الدين المسيحي ، أي تبادل الحب والاخلاص بين الجميع ، رأيتهم وهم يتنازعون فيما بينهم ، ويتناحرون بحدّة وسوء نية متناهية ، ولا يخفون عن بعضهم أمارات الحقد والضغينة ، بحيث كان إيمانهم يشمل من هذه العواطف أكثر من تلك » .

إن الغبطة الحقيقية ، ليست من حظ البعض دون البعض الآخر وهي كينوع لا تستثني أحداً . « وإذن فمن يُسر من ضرر الغير فهو حسود لئيم لا يعرف المحبة ولا السكينة في الحياة الحقيقية . »

تؤثر في عالم الروح وفي عالم المادة ، يدعونا سبينوزا إلى إمعان النظر في نفوسنا وفي كل شيء من الوجهة الأزلية . وإنه بذلك يبددها يقاتنا من شكوك إذ يجعلنا نشعر بأننا نكوّن وحدة مع الكائن السرمدي اللانهائي .

فلنجتهد في أن ندرس عن كثب جمال تلك الفكرة وغناها في مختلف أدوارها وأطوارها .

١ — طبيعة المعرفة

ان سبينوزا ، بما عرف عنه من شدة الاهتمام بصحة ما يؤكده من الحقيقة والبحث عن الحقيقة ، يشرح بفراسة لا تأتي الانفعال ، مسألة مبادىء ، لم تتم ، مع الأسف ، عن تنظيم الادراك العقلي . وان الانسان ليرى فيها ، كما يرى في جميع كتاباته وفي جميع نظرياته ، روح الفنان ، روح سبينوزا تتلألأ وتتجلى في اتحاد غرضين متباينين تمام التباين : فمن جهة ، العالم بما بعد الطبيعة الذي يقدر ، في كل ما يعالجه ، منبت الأشياء وقيمتها الأصلية والكائن في جميع عظمته وسلطانه ، ومن أخرى ، المهذبُ الاخلاقي الذي يراعي دائماً الحرية والسعادة والغاية والحياة الداخلية السعيدة .

وهكذا فإن فيلسوف لاهاي ، قبل أن يشركنا في المنهج الذي لابد من وجوده لتقدير الأمور على وجهها الصحيح ، يعترف لنا بتواضع بمقدار ما لقيه من عناء وتفكير ليتوصل إلى اكتشاف هدوء النفس وحالتها الطبيعية . ولقد كتب :

« لقد علمني الاختبار أن أغلب المعاملات التي تقع في الحياة العادية وهية باطلة »
« ولقد كنت أرى انه لا يوجد بين الأشياء ، التي كانت لي مبباً أو مادة للخوف ، »
« شيء ولحد يتضمن في ذاته خيراً أو شراً إن لم يكن بنسبة التأثير الذي يثيره في »
« الروح . ولقد اعتزمت في النهاية أن أبحث عما إذا كانت هناك مادة يصح اعتبارها »
« خيراً حقيقيًّا يمبل تبادله وتستطيع النفس أن تتأثر بواسطته بعد أن تزهد في كل »
« شيء آخر : خيراً تكون ثمرة اكتشافه أبدية والاستمتاع به أبدية من السرور »
« المستمر السامي ، قلت بأني قد اعتزمت في النهاية : حقًّا لقد كان يخال لأول وهلة »

لقد كان تأثيره عظيماً على علم ما بعد الطبيعة في ألمانيا . وهذا التأثير تجلى بشكل قاطع في مذهب ليبنيتز . وقد تأثر كذلك المفكرون في بلاد أوربية أخرى بالاسبينوزية سواء في عالم السياسة، أو في عالم الدين، أو في عالم ما وراء الطبيعة والأخلاق وعلم النفس، بل وفي ثقافة العلم البحت .

ولقد صاح رينان بعبارات مؤثرة عند الاحتفال بإقامة تمثال سبينوزا : الويل لمن يمر ويوجه الفطنة الى هذا الوجه الرقيق المفكر . لسوف يهدي الجميع من فوق تلك المنصة إلى طريق السعادة التي اكتشفها . وسيأتي يوم بعد مرور أجيال يتنزل الرجل الذي يمر به إلى نفسه : « هنا رؤي الله عن كثب » .

ليس مظهر الطبيعة العظيمة التي ترمي إلى اللامتناهي والأبدي هو المظهر الكامن في سبينوزا، وانما الذي يكمن فيه بوجه خاص ، كما أسلفنا في بدء هذه الدراسة ، هو الحب الذي يستلزم الرحمة والشفقة، ويتطلب الحنان والحياة السعيدة .

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

الالوهية والفكر

بحث في العقائد المألوفة

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور

وهو بحث منيت للالوهية ناف لما يدعيه بعض الماديين

من ان في المادية الصميمية قصداً اوما يشبه القصد

ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

الفريد دلا موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

الازهر بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية

والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور

علي رجب المدرس بكلية أصول الدين

مع مقتطف ابريل سنة ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل —

تأليف هنري سرويا — ترجمة سليم سعده

يظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

اطلبها مع مقتطف مايو وثمن النسخة ١٠ قروش

موسكو — برلين — لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم عصام الدين حفني ناصف — يظهر مع مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦

وكلاء المقتطف ومحلات الاشتراك

في القاهرة والقطر المصري ادارة المقتطف بشارع الفاصد — باب اللوق

في بيروت — سوريا — جورج افندي عبود الاشقر ص. ب رقم ٩٢٩

في طرابلس الشام — الاستاذ عبدالله الياس حصني

في دمشق — شملان — الشهداء — الاستاذ السيد حمدي القواص

في شرقي الاردن — عمان — الاستاذ يعقوب غودات

في فلسطين — الاستاذ مصطفى الطاهر

مدير مكتبة الطاهر اخوان — يافا — شارع الملك جورج

في حمص — سوريا — الخوري عيسى اسعد

في حلب شارع السويقة السيد عبدالودود البيالي وأولاده أصحاب المكتبة العصرية

في صيدا — نقولا افندي حريصي داغر — صيدلية الهلال

في حماه — السيد طاهر افندي الكيالي

في الارجنتين — Mr. N. J. Nazar
Avenida de Mayo 1370
Buenos Aires, Rep. Argentina

في الولايات المتحدة والمكسيك وكندا وكوبا — Mr. Noguib Shehadi
9012 Narrows Avenue
Brooklyn N. Y—U. S. A.

قيمة الاشتراك في المقتطف تدفع مقدماً

سنة

١٢ في القطر المصري والسودان

١٤ في سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق «بريد عادة»

دولارات لاميركا الشمالية

دولارات لاميركا الجنوبية وجمهورية الأرجنتين

في سائر الجهات ٣٠ شلناً

ملحوظة | يخصم ٢٠٪ من قيمة الاشتراك للاساتذة والطلبة الذين يرفقون طلبهم بشهادة من مدير المدرسة تفيد أنهم

مطبوعات المقتطف

في ادارة المقتطف مائة من أفيد الكتب المصرية والعلمية والروايات الأدبية

	ص		ص
الفتح مستهل الاستاذ فؤاد صروف	٤٠	تراث مصر القديمة	٣٠
معجم الحيوان : لفريق الدكتور امين بك المعلوف	٥٠	رجال المال والاعمال : للمقتطف	٢٠
فصول في التاريخ الطبيعي : للمقتطف	٣٥	رواية امبرة انكلترا	١٥
عثمانيات المقتطف	٣٥	نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية	٣٥
الرواد : للمقتطف	٤٠	سفر قريش : للاستاذ علي أدهم	٢٠
مصر الاسلامية : لجماعة من الاساتذة	٣٠	معجم الاعلام : جزء اول	٢٥
رواد الشرق العربي	٤٠	القضايا الاجتماعية : للدكتور شهندر	٢٥
الصناعات والصناع	٢٠	مركب الحياة ٣٨ قصة عالمية	٤٠
خيوط الغمام : ديوان شعر	٢٠	المنتخبات الجزء الثاني : للمنفلوطي	٤٠

هذه الاسعار يضاف اليها ٢٠ ٪ اجرة البريد في داخل القطر المصري وخارجه

المقتطف

يوزعه

في فلسطين : شركة فرج الله

في لبنان والشام : شركة فرج الله وحتي اخوان

في العراق : محمود حلمي